دراسات منهجية هادفة

حول الأصول الثلاثة:

الله، الرسول، الإسلام

الجزء الرابع

تأليف

سعيد حوى

راجعه الأستاذ

وهبي سليمان الغاوجي

بسم الله الرحمن الرحيم

الأصل الثالث

الإسلام

الفصل الرابع

مؤيدات الإسلام

ذكرنا في مقدمة الحديث عن هذا الأصل أن للإسلام مؤيدات .

والآن نحب أن نفصّل هذه المؤيدات فنقول:

إن مؤيدات الإسلام تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ – مؤيدات بشرية تتمثل بالجهاد ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والحكم.

٢ – مؤيدات فطرية تتمثل بالعقوبة التلقائية التي تترتب على مخالفة أمر الله .

٣ – مؤيدات ربانية تتمثل بعقوبة القهر الإلهي في الدنيا ، أو بالثواب والعقاب في الدار الآخرة .

وقد مرّ معنا تفصيل كامل للمؤيدات البشرية في وضعها الإسلامي الصحيح .

ومر معنا أثناء الحديث عن السياسة العسكرية في الفصل الثالث ، وأثناء الحديث عن العقوبات المحددة وغير المحددة كالتعازير . ومرّ معنا بشكل مفصل في كتاب : جند الله : أخلاقاً وثقافة .

ولذلك فإننا لا نجدنا بحاجة هنا في هـذا الفصل إلى الكلام عن المؤيدات البشرية التي افترض الله على المسلمين أن يقوموا بها من أجل إقامة دينه ، وعلى هذا فسنقتصر في هـذا الفصل على الحديث عن المؤيدات الفطرية للإسلام والمؤيدات الربانية.

ونعني بالمؤيدات الفطرية العقوبات التلقائية التي تترتب عفوياً نتيجـة لأي انحراف عن أمر الله ، لأنه لما كان الإسلام هو دين الفطرة البشرية : « فطرة الله التي فطر الناس عليها

لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » ولما كان الإنسان عندما يمشي في غـير طريق الفطرة يعذب ذاته فيشقى، وكلما أوغل في الطريق غير الفطري ازداد شقاؤه مهما كان في الطريق الآخر من ملذات مآلها الضياع .

لذلك قال الله تعـــالى : « ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » فالمعيشة الضنك في الدنيا ، والعذاب في الآخرة ، وعبر عن الذين يسيرون في طريق الكفر والضلال بأنهم يظلمون أنفسهم « فلا تظلموا أنفسكم »،« ومـــا ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين»،« ظلموا أنفسهم» وما ذلك إلا لأنهم أوردوها الهلاك في الآخرة والشقاء في الدنيا .

أما المسلم فعلى العكس من ذلك يعيش بسعادة في الدنيا ، وينعم بنعيم الآخرة .

قال تعالى : « من عمل صالحـاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حيـــاة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وهذا الكلام قد يكون لأول بادرة عجيباً على بعض الأسماع ، ولكنه الواقـع الذي تشهد له كل وقائع الدنيا ، ومهمتنـــا في بحث المؤيدات الفطرية أن نبرهن من واقع الحياة البشرية عليه .

ونعني بالمؤيدات الربانية :

ما يعاقب – الله عز وجل – به المنحرفين عن أمره في الدنيا ، وما يمد به المقبلين على طاعته من ألوان التأييد فيها .

وما أعده الله عز وجل للمنحرفين عن طاعته من عقوبة في الآخرة ، وما أعده لأهل طاعته من نعيم .

وعلى هذا فسينقسم هذا الفصل إلى قسمين :

القسم الأول : المؤيدات الفطرية .   القسم الثاني : المؤيدات الربانية .

والقسم الثاني ينقسم إلى فقرتين : أ – المؤيدات الربانية في الدنيـا . ب – المؤيدات الربانية في الآخرة .

وقبل الحديث عن المؤيدات الربانية في الآخرة سنتحدث عن اليوم الآخر ويقينية وجوده.

القسم الأول

المؤيدات الفطرية

إن هذا الإسلام يمثل سنن الله التي لا تستقيم الحياة البشرية إلا بها ، وكما أن الإنسان إذا لم يتنفس يختنق ، وإذا لم يأكل يموت لمخالفته سنن الله ، فإن أي انحراف عن أي جزء من أجزاء الإسلام يحمل في طياتـه عقوبته التي تحيق بالمنحرفين عنه . فمن رفض العبودية لله عاقبته سنن الله بأن تجعله عبداً للإنسان . ومن غش ليربح عاقبته سنن الله بأن يفقد الثقة ويخسر . ومن فرط في واجب اليوم عاقبته سنن الله بمضاعفة التعب في يوم آخر.

وهكذا فما من انحراف عن أي جانب من الإسلام إلا وتقابله عقوبة تليق به في الدنيا، لأن الانحراف عن قوانين الله في الكون والإنسان والاجتماع دائماً ليس لصالح الإنسان بل هو تدمير له أو تعذيب..

وسنضرب عشرة أمثلة من عقوبات الفطرة، على عشرة أمثلة من الانحراف عن أمر الله ليتضح هذا المؤيد القوي من مؤيدات الإسلام .

١ ـ الزنى

إن العقوبات الفطرية التي رتبها الله على الاتصال غير الشرعي بين الرجل والمرأة كثيرة تجعل المتعة أقل بكثير جداً من الألم .

فأول العقوبات : إذا حملت المرأة من سفاح فإنها ستمرض وتتألم وتتعطل عن العمـل إن كانت عاملة ، دون أن يتحمـل معها أحد عبء المشاركة بالإنفـاق عليها ، أو على ولدها ، والمرأة عـادة لا ترغب في الأولاد عن هذا الطريق ، فهي إما أن تجهض نفسها وذلك ألم أكثر مما تمتعت فيه ، وإما ستتحمل مسئولية الحمل والولد وحدهـا ، وهذا ألم آخر يفوق المتعة .

وثاني العقوبات : ما يترتب على عملية الزنى من أمراض جنسية لا تكون إلا عن الزنى كالزهري والقرحة الأكالة ، وجرب التناسل ، وسنط التناسل ، وهربس التناسل، ومرض السيلان.

وثالث العقوبات : تأنيب الضمير لخيانة الرجل زوجته بزناه بغيرها ، وخيانة المرأة زوجها بزناها بغيره والخوف الذي يحيط بالموضوع من خشية كل من الزانية والزاني افتضاح أمرهما في كل حال ، سواء كانا متزوجين أو غير متزوجين .

ورابع العقوبات : تعطيل الحياة الزوجية ، إذ الحياة الزوجية تقوم على أساس صلة المودة التي يغذيها شعور كل من الزوجين بأنه للآخر ، فإذا ما أفرغ الزوج طاقته الجنسية عند غير زوجته ، وأفرغت المرأة طاقتها الجنسية عند غير زوجها ، فترت العلاقة بين الزوجين ، ولم يحس أحدهما بالسكن نحو الآخر ، وكل منهما صار يرى زوجه لغيره ، وفي ذلك من الألم الكثير ، إذ ينشأ عند ذلك الجفاء والخصام وعدم الطاعة والرعاية ، وبالتالي الطلاق فضياع الأولاد ، فزواج آخر قد يكون له نفس المصير .

وخامس العقوبات : أن عملية الجماع ينشأ عنها مودة خاصة ، وينتج عن هذا ألم نفسي عند الزاني لشعوره أن هذا الذي تمت معه عملية الجماع سيكون لغيره في مثل وضعه، وهذا قريب من السابق ولكن ذلك خصصناه لآثار هذا على الحياة الزوجية .

وسادس العقوبات : أن الذي تعود على الزنى يبقى في شره دائم للنساء ويعيش نتيجة لهذا في قلق دائم ، وضياع واضطراب نتيجة البحث ، ومحاولة الاتصال ، وفشل وسائل الإغراء ، وعدم استطاعته الوصل ، وهو بالتالي ليس لولد ، ولا لبيت ، ولا قرابة له ، ويكفيه نتيجة لذلك إن استغنى بالزنى عن الزواج ألا يجد من يرعاه في مرض أو في كبر، أو من يواسيه أو يحترمه أو يحس معه بأواصر الحنان والرحمة والألفة .

إن الزنى في الحقيقة عملية تحطيم لأنفس ولأسر ولاجتماع ولذلك قال الله فيه : « ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا » إنه طريق سيىء وعقوبة سلوك الطريق السيىء معجلة فيه .

والمسألة بعد ذلك في الإسلام قد رتب عليها عقوبة جسدية تصل إلى الإعدام في حالة، وعذاب الله بعد ذلك آت لمن لم يتب ، ونحن هنا فقط بسبيل شرح عقوبة سنن الحياة

عن الانحراف عن أمر الله ودينه وشريعته ، ومهمتنا أن نشير إشارات ولا نطمع في الإحاطة .

٢ - شرب الخمر

إن الخمر في دين الله محرمة ، وككل محرم فإن إتيانه عقوبته فيه ، وهذه بعض عقوبات الانحراف عن أمر الله التي تنتج عن مجرد تعاطي هذا المحرم :

١ – إن شارب الخمر أول ما يصاب بإدراكه وعقله،ويكفي أن نعلم أن شرب كأس واحدة من الويسكي يؤدي إلى أن تكثر أخطاء ضارب الآلة الكاتبة مثلاً ، ويلاحظ الاضطراب عن الوضع المعتاد في كل تصرف من تصرفات شاربه ، واي عقوبة أكبر من عقوبة تجعل الإنسان ينحدر إلى وضع المجانين .

٢ – إن شارب الخمر يفقد إرادته وقوة ضبطه لنفسه فيكثر هيمانه ، وتكثر سقطات لسانه ، وكلما أوغل في شرب الخمر أكثر كلما زادت عنده هذه الظاهرة أكثر ، وأبشع بإنسان ينهار نفسياً كل يوم .

٣ – إن ١٣ ٪ من حوادث المرور سببها الخمر،وكثيراً من الجرائم والفظائع والخيانات سببها الخمر كذلك ، وهذه عقوبة فطرية لا تصيب صاحبها فقط، بل تصيب المجتمع الذي يسمح بشرب الخمر .

٤ – والخمر يؤثر على بنية الإنسان تأثيراً كبيراً ، لدرجة أن هذا التأثير ينتقل إلى الذرية ، وقد لوحظ أن أولاد السكيرين ينشأون غير صحيحي الجسم ، ضعفاء البنية ، ناقصي العقول ، ويكون لديهم ميل إلى الإجرام ، ودافع إلى الشر .

٥ – وكثير من الأمراض سببها الخمر ، فانفجار الشرايين في الدماغ ، وارتفاع الضغط ، وعسر الهضم ، واحتقانات المعدة ، وأمراض الكبد وضعف المقاومة... وكثير من الأمراض ، للخمر دخل في وجودها مع من يشربها .

٦ – ومن عقوبات جريمة شرب الخمر الفطرية ، إضاعة الوقت، وقتل النشاط ، وإثارة البغضاء ، وخراب البيوت ، وموت الضمير ، وفقدان الحساسية ، وأشياء أخرى كثيرة .

إن عقوبة شرب الخمر فيه ، ولقد رتب الشارع عقوبات تشريعية رادعة على ذلك ، ليس هنا محل بحثها .

٣ - القمار والميسر

وككل انحراف عن أمر الله عقوبته فيه ، فإن القمار والميسر هكذا ، فالعقوبات الفطرية التي تترتب على هذه المعصية كثيرة ، وهي غير ما يستحقه المقامر من تعزير في التشريع ، وغير ما يستحقه من عقوبة يوم القيامة على ما اقترفت يداه . ونلخص أهم العقوبات الفطرية في القمار بما يلي :

١ - تحطيم أعصاب المقامر أثناء المقامرة ، إذ تتوجه جميع قواه العقلية ، وتستوفز أعصابه لمعرفة النتيجة خسارة أو ربحاً بشكل لا مثيل له ،مما يؤدي إلى إرهاق الأعصاب، إذ أن المقامرة تجر بعضها بعضاً، فمن بدأ مرة تابع مرات ، وهو في هذه الحالة من التوتر العصبي ، فالاستمرار بهذا تحطيم لشخصية الإنسان بشكل كامل .

٢ - ومن أهم العقوبات أن المقامر يبقى يومه كله قبل ميعاد بدء مقامرته ،وهو يفكر فيها ، في ربحها وخسارتها ، ثم بعد أن ينتهي من مغامرته فهو أحد اثنين إما رابح تأخذه النشوة فيبقى يعيش فيها ، وإما خاسر مكمود يتذكر خسارته ، ومعنى هذا أن المقامر لا يعيش لشيء إلا للمقامرة ، قد استغرقه القمار عن كل واجب .

٣ - إن القمار ربح أو خسارة غير معقولين يتحكم بها شيء غير معقول وينتج عن هذا أن المتقامرين دائماً في حالة حقد وحسد وبغضاء ، وتشاحن ظاهر وخفي فيما بينهم ، فجو المتقامرين جو شقاء ونكد ، لا يمكن أن تجد فيه سعادة مستمرة .

٤ - عملياً الرابح الوحيد في المقامرة ، هو من يدير عملية القمار من ناد أو مقهى ، أو صاحب بيت ، وأما الأطراف الأخرى فهي في خسارة وربح .

ويترتب على الخسارة فواجع وفظائع ، فالغني اليوم فقير غداً ، وصاحب العيال قد يفرط بقوت أولاده على مائدة القمار ، وقد يبيع داره وقد وقد مما هو من تصرفات المجانين ، إذ يتحكم بعملية نقل الملكية ضربة نرد أو ورقة لعب ، وكفى بهذا عقوبة للخاسر .

أما الرابح اليوم فهو الخاسر غداً ، إذ يوم لك ويوم عليك في القمار ، ولن يربح في النهاية إلا الخبثاء الذين يديرون هذه القضايا ، وكل ما في الأمر أن الرابح اليوم خسر مودة الآخرين .

٥ – إن الذي يربح في القمار لا يبالي كيف أنفق المـال ، لأنه لم يتعب في تحصيله . والذي يخسر قد تضطره خسارته للخيانة والسرقة، وفي كلا الحالين تجد الانحراف الذي يؤدي إلى الملاحقات القانونية ، والعقوبات أو الضرر الاجتماعي، على كل حال، إذ الرابح عن هذا الطريق لن يفكر في العمل ، وذلك تعويد له على الكسل والتسكع ، فإذا مـا خسر في يوم آخر فماذا يفعل بعد ان اعتاد على عدم مزاولة العمل ؟ إنه إن عمل فبألم ، وإن لم يعمل عانى شقاءاً .

ولكي نعرف بالضبط كيف أن القمار عقوبته فيه، أدرس أحوال المقامرين تجد الديون والشقاء والألم ونسيان الواجبات ، والتفريط بحقوق الأهل والأصحاب والناس،والشرود الدائم ، والخطأ الكثير ، إنك لا تجد إنساناً سوياً أبداً .

٤ ـ أكل لحم الخنزير

أول عقوبات الانحراف عن أمر الله في أكل لحم الخنزير أن آكل لحم الخنزير معرض للإصابة بدودة لحم الخنزير يقول (بيتي وديكسون) :

(إن الإصابة بها تكاد تكون عامة في جهات خاصة من فرنسا والمانيـــا وإيطاليا وبريطانيا ولكنها تكاد تكون نادرة في البلاد الشرقية لتحريم دين أهلها أكل لحم الخنزير) .

وثاني هذه العقوبات أن آكل لحم الخنزير معرض لمرض التريخينا الذي من خواصه :

أولاً – لا يمكن للطبيب الأخصائي أن يذكر أن خنزيراً ما غير مصاب بهذه الديدان إلا إذا فحص كل جزء من عضلاته تحت المجهر وهـــذا غير ممكن لأنه إذا فعل ذلك نفذ لحم الحيوان .

ثانياً – الأنثى الواحدة من هذه الديدان تضع نحو ١٥٠٠ جنـــين في الغشاء المخاطي المبطن لامعاء المصاب ، فتوزع الملايين المولودة من الإناث جميعاً بطريق الدورة الدموية إلى جميع أجزاء الجسم ، فتتجمع الأجنة في العضلات الإرادية حيث تسبب آلامـاً شديدة ، والتهابات عضلية مؤلمة تدعو إلى انتفاخ النسيج العضلي وصلابته ، وتكون نتيجة ذلـك الأورام التي تمتد بطول العضلات .

ثالثاً – لا يوجـد علاج لهذا المرض ، ولأسباب فنية لا يجدي معه دواء ، فحتى الآن لم يعرف له دواء مناسب .

وثالث هذه العقوبات أن لحم الخنزير ينقل للإنسان بعض الجراثيم العفنة، والباراتيفود التي تسبب للإنسان تسمماً حاداً،مصحوباً بالتهابات شديدة في الجهاز الهضمي،وقد تسبب الوفاة في بضع ساعات .

ورابع هذه العقوبات ما يحدثه أكل لحم الخنزير من تغيير في نفسية الإنسان يخرجهـا عن وضعها السليم. وذلك أن للطعام والشراب أثراً في نفس الإنسان بشكل واضح .

فمثلاً : بعض الأشربة إذا شربهـا الإنسان أحس بفرح وخفة ونشاط ، وهناك طعام يحس معه الإنسان بفتور وكسل ، ويلاحظ أن نفسية الذين لا يأكلون إلا النبات تختلف عن نفسية الذين يأكلون اللحـوم ، وحتى الذين يديمون أكل لحم الجمل ، تجد نفسيتهم تختلف عن نفسية الذين يديمون أكل لحم الضأن ، وهذا واضح في الحيوانات بشكل بارز ، فالحيوانات النباتية ألطف وأقل شراسة وأكثر انقياداً من الحيوانات اللاحمـة ، فلنوعية الطعام أثر في تكوين أخلاق النفس البشرية،والخنزير بشكل عام له أخلاق هابطة دنيئة ، وعنده بلادة فظيعة ، وتحسس بطيء بكل ما يجري حوله ، فأكل لحمه يؤثر تأثيراً سيئاً على نفسية آكليه ، ونظرة واحدة إلى المناطق التي يؤكل فيهـــا لحم الخنزير ، ومقارنتها بغيرها من المناطق الأخرى تشعرك بوضوح أن هناك اختلافاً جوهرياً في الأخلاق والنفسية. فمثلاً خلق الشرف ، والمحافظة على العرض ، والغضب لانتهاك حرمات الزوجة والأرحام، وتبلد كثير من جوانب الشخصية البشرية ، كل هذا تجده بشكل واضح في المنـاطق التي يؤكل فيها لحم الخنزير ، وتجد عكسه في المناطق الأخرى، إلا إذا وجدت عوامل أخرى أدت إلى تشابه في النفسيات .

وهذا عقاب فظيع لا تحس به إلا نفس شفافة صافية : أن تمرض نفس الإنسان لدرجة التبلد ، فلا تقف المواقف المناسبة السليمة من الحوادث ، إذ ينشأ عن هذا ضعف رابطـة الزوجية ، وضعف رابطة الأبوة والبنوة ، وضعف رابطة الأسرة بشكل عـام ، وموت الإحساسات الإنسانية الطيبة ، من ثقة إلى حنان إلى عطف ، وهذا كله عذاب وهذا كله ملاحظ في المناطق التي تأكل لحم الخنزير .

٥ ـ عدم قرار المرأة في بيتها

لقد أمر الله نساء النبي أمراً هو لكل امرأة فقال :

« وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » وإذن فقد جعل الله المهنة الأساسية للمرأة داخل بيتها ، كأم وربة بيت ترعى زوجها وأولادها ، وجعل لها في مقابل ذلك أن نفقتها على غيرها دائماً : على زوجها بعد الزواج ، وعلى أبيها قبله لأنها في مرحلة تدريب على رعاية البيت ، والزوج والأولاد ، وفي حالة فقد هذا وهذا فرض نفقتها على أقرب الناس إليها ، ثم الأقرب إلا إذا كانت غنية .

وما له علاقة في هذه القضايا قد مرّ تفصيلاً في بداية المنهاج الاجتماعي والاخلاقي. ولكن نفرض أن النساء والرجال قد اتفقوا على صيغة أخرى من صيغ التعايش ، تصبح فيها المرأة كالرجل في الوظيفة والعمل ، والمطالبة بالنفقة والكسب ، كما حدث هذا عملياً بشكل كامل في العالم الغربي الآن ، حيث أصبح الرجل والمرأة كلاهما خارج البيت في العمل ويتقاسمان أمر البيت كذلك .

فما هي العقوبات الفطرية التي ترتبت ، ويمكن أن تترتب على مثل هذا كله ؟

إن أول عقوبة فطرية تترتب على مثل هذا: أن تضطرب العلاقة بين الرجل وزوجته ، فلا هي تحس بطمأنينة ولا هو يحس بسكن ، ولا الأولاد يحسون برعاية كاملة ولا المرأة تستطيع ذلك .

وثاني العقوبات : أن المرأة تشعر بأنها تستطيع الاستغناء عن زوجها نتيجة لذلك ، والرجل لا يتغير عليه كثير من الأمور إذا فقد زوجته ، وينتج عن هذا أن عقد الزواج دائماً معرض للخطر ، ومن العجيب أن في بلاد الإسلام حيث يباح الطلاق تكاد تكون نسبة الطلاق خاصة في البيئات الملتزمة بالإسلام صفراً ، بينما نسبة الطلاق في بعض البلدان الغربية تصل إلى $\frac{1}{7}$ من حالات الزواج .

وثالث العقوبات : أن المرأة بهذا الخروج أسقطت حق نفقتها على الآخرين ، مما يجعلها في حالة عذاب وشقاء دائم متى بلغت سن الرشد ، إذ تطالب بأن تنفق على نفسها ، وعليها أن تبحث عن عمل ، وأن تعمل كالرجل .

ورابع العقوبات : أن المرأة نتيجة لهذا تبدأ تفقد خصائص أنوثتها ، بحيث لا تعود صالحة لوظيفتها الأساسية : حمل الجنين وحضانته لاستمرار النوع البشري ، وفي ذلك ألم نفسي كبير .

وسنرى هذا أثناء الكلام الذي سننقله في نهاية هذا البحث عن سيد قطب ..

وخامس العقوبات : أن تتفكك الروابط الاجتماعيـة ، فلا أسرة ولا أبوة ولا بنوة ولا مشاعر عاطفية ، فكم من أب لا يعرف عن أبنائه شيئاً ، وكم من أم مهددة ، ولعـل عيد الأم في الغرب إنمـا هو رمز فظيع على انقطـاع أواصر الأسرة ، حتى احتاجوا إلى يوم يتذكر فيه الإنسان أن له أماً وأباً .

وسادس العقوبات : انه بانعدام رابطـة الأسرة أو ضعفها أصبح الطفـل لا يرث عن الآباء خصائص الإنسانية وعواطفها ، ولذلك تجد هـذا الضياع الذي يعانيه المراهق في الغرب ، والذي مظهره جيل الخنافس والمشردون والفوضويون وغير المبالين ..

وهذه أمثلة ، والعقوبات الفطرية التي تترتب على هذا أكثر ، حتى أنك لتستطيـع أن تقول إن الاجتماع البشري كله معرض لخطر الاضمحلال النفسي والجسدي نتيجة للعقوبات التي تترتب على هذا الانحراف .

وطبعاً كلا منا عندما تصبح القاعدة هي عدم جلوس المرأة في بيتها للقيـام برعـاية الزوج والأولاد ، وعدم التزامها بآداب الإسلام خارجة . أما إذا كان الأصل في مجتمع قرارها ، وحدثت حالات نادرة ضمن قيود محدودة كما رأينا ، فهذا لا يؤثر ، وليس فيه ضرر ما دام الالتزام بالإسلام موجوداً .

٦ ـ الرشوة

لقد حرم الإسلام الرشوة : أخذها وإعطاءها والوساطة لها : (لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي والرائش بينهما) وقال الله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون » .

وهذه الجريمة تترتب عليهـا عقوبات فطرية كثيرة تصيب الدولة التي تنتشر بها ، والمجتمع الذي يعيش فيها ، والفرد الذي تتم العملية له أو عليه .

فمن أول العقوبات الفطرية أن المجتمع الذي يحس بأنه لا ينال الحق فيه إلا بالباطل والرشوة ، تضيع به الموازين ، وتنهار الثقة ، ويزداد فيه الشك ويتفسخ ، ويصبح ناقماً على دولته غير واثق بها ، مما يسهل الإطاحة بها وانهيارها .

وثاني العقوبات : أن الرشوة إذا انتشرت أصبح كل إنسان معرضاً لدفعها : الآخذ في مجال مضطر للدفع في مجال آخر ، وفي ذلك ألم يحسه كل من عاناه .

وثالث العقوبات : أن المرتشي إنسان يعيش دائماً في حالة خوف من أن يفتضح أمره وكذلك الراشي .

ورابع العقوبات : أن كلا الرجلين إنسان فاقد القيمة ، هذا شعوره بنفسه ، وشعور الآخرين به . أنه إنسان منحط غير جدير بالاحترام ، ويربط الناس تصرفاته المالية كلها بهذا ، فهو إذا أقام بناء قالوا مرتش ، وإذا ظهر له مال قالوا كذلك ، وهو في هذه الحالة ينحدر وضعه النفسي من سيىء إلى أسوأ ، حتى يتبلد ضميره ، ويعيش أزمة مقت الآخرين له ، ومقته للآخرين ، فلا يبالي بما يقال عنه ، ويؤثر هذا على سلوك أسرته كلها ، فتنحرف ويصبح وجودها ظاهرة غير عادية .

وخامس هذه العقوبات : أن المجتمع الذي يسمح بمثل هذا، مجتمع تضيع فيه الحقوق، ويأكل القوي فيه الضعيف ، وتضيع به الحدود . فحق الدولة يصبح للأفراد ، وحق الأفراد ينتقل إلى غيرهم بغير طريق مشروع ، ومجتمع هذا شأنه يصبح في حالة سباق إلى الخيانة . فتضيع مثله ، ويتحلل ثم يسقط . وهذا بعض ما يترتب على القضية من عقوبات .

٧ـ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد

إن عقوبات الفطرة التي تترتب على ترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر والجهاد بالنسبة للمسلمين كثيرة :

منها ذلة الأمة الإسلامية أمام أعدائها في الخارج ، وذلة المؤمنين أمام المنافقين في الداخل ، وهذا واقع نراه الآن وتعيشه الأمة الإسلامية في واقعها الحالي ، وقد تحدث عن هذه العقوبة رسول الله ﷺ في أكثر من حديث يقول عليه السلام : (إذا تبايعتم بالعينة وتبعتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم جهادكم سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه حتى

تعودوا إلى دينكم) . وروي عنه عليه السلام: (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم) .

ومنها أن يعم الظلام والضلال ، وتستشري الفتنة حتى لا يعرف أحد طريقه . وفي الأثر :

(كيف أنتم إذا طغى نساؤكم وفسق شبانكم وتركتم جهادكم ؟ قالوا وإن ذلك لكائن يا رسول الله قال نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا وما أشد منه يا رسول الله ؟ قال : كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر ؟ قالوا وكائن ذلك يا رسول الله قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا وما أشد منه قال : كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً قالوا وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف ؟ قالوا : وكائن ذلك يا رسول الله ؟ قال : نعم والذي نفسي بيده وأشد منه سيكون يقول الله تعالى : (بي حلفت لأتيحن لهم فتنة يصير الحليم فيها حيران) .

وهذا كله واقعنا الحالي بآثاره كلها .

ومنها أن تفترق قلوب الأمة وتصطدم نفوسها ، ولا يكون بينها تلاق على شيء أبداً، إذ بعد أن فقدت الحق الذي يجمع، فإن الباطل طرقه كثيرة مفرقة. وفي الحديث :

(لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله تعالى قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود .. الآية .. ثم جلس وكان متكئاً فقال : والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً) .

وعاقبة هذا كله الهلاك والموت، إذ عندما تفقد أمة الإسلام حياتها التي هي باستجابتها لأمر الله ماذا يبقى لها « أومن كان ميتاً فأحييناه »، « استجيبوا لله وللرسول إذ دعاكم لما يحييكم » فالحياة في الإسلام ، وترك ما يؤدي إلى بقاء الإسلام وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد معناه الهلاك . وفي الحديث :

(مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا لوا أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً

وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً) . رواه البخاري .

والحقيقة أن مصدر الشر كله يخرج من هـــذا الباب ، إذ ما من انحراف إلا ووراءه ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد ، وكل انحراف يترتب عليه كما رأينـــا عقوبات فطرية كثيرة .

٨ ـ الموسيقى والغناء الفاسد

١ ـ إن سماع الموسيقى الدائم يجعل النفس البشرية في حالة ارتخاء دائم ، فتقوى بها نوازع الهوى والإخلاد إلى الراحة ، وكراهية التكاليف والمشقات، وهذا خطر من الأصل على وجود الأمة وشعورها بواجبها ، واستعدادها للتضحية له ، وهذه أول عقوبة فطرية تترتب على هذا الانحراف ، وادرس تاريخ الأمم فإنك لا تجد أمـــة أغرقت واستغرقت في الموسيقى ، وكان عندها روح نضال ، بل تجد عندها دائماً روح الاستسلام .

٢ ـ والموسيقى ذروة اللهو ، واللهو ذروة الحياة الدنيا، فاستغراق الإنسان بالموسيقى والأنغـــام ، وإقباله الدائم عليها ، يجعله في وضع عملي من الناحية النفسية منصرفـاً عن الآخرة ، غافلاً عنها ناسياً لها، وتجد مشاعره كلها منصبة على متعة الدنيا، مما يجعله بشكل عملي منصرفاً عن القيام بالتكاليف ، وادرس حياة إنسان : رجل أو أنثى مولع بالموسيقى تجد نفس إنسان متثاقلة عن التكاليف ، إن قـــام ببعضها أهمل الآخر . فالموسيقى في الحقيقة تخدير لمشاعر الإنسان العليا ، وإيقاظ لعين الدنيا في قلب الإنسان .

٣ ـ إن وقت الإنسان في العادة موزع بين العمل والانتاج ، والنوم والطعام وغيره ، وما يتبقى بعد ذلك من الوقت ينبغي أن يصرفه الإنسان على إصلاح ذات نفسه، باستكماله فضائلها وكمالاتها ، ومجتمع يقضي وقت فراغه في مثل هذا يرجى له خير ، أما إذا شغلت أوقات الفراغ هـــذه بوسائل اللهو والتسلية والباطل ، أصبح الإنسان يعيش حيـــاة الحيوان التي ليس للمخلوق فيها هدف سوى طعامه وشرابه ومتعته ، والبحث عما يؤدي إلى هذا .

٤ ـ فإذا ما أضيف إلى هذا كله الغنـــاء الذي ينبع عن تصور فاسد للإنسان ، وعن عواطف خسيسة ، وعن فكر رديء ، وعن مشاعر منحرفة ، فإن هذا كله قتل للأمة وروحها ، ومسخ لحقيقتها.

إن الغناء يؤثر في تربية الأمة أكثر من تأثير القانون ، وكلمة كونفوشيوس في هـذا الموضوع حكيمة : (قبل أن تخبرني من يضع للأمة قانونها أخبرني من يضع لها أغانيها) فالغناء أكثر أثراً في تربية الإنسان من أي شيء آخر ، لأنه ألصق بالنفس والعواطف ، فإذا كان الغناء الذي تسمعه الأمة صباح مساء ، هو من النوع الذي ذكرناه ، وصاحب هذا كله الموسيقى فاقرأ على معنى الواجب عند أفراد هذه الأمة السلام ، وعندما تفقد أمة حب القيام بالواجب ، فهي إلى اندحار وانتحار .

إن محور وجود الإنسان في هذه الحالة ، يدور حول عبودية الذات ، والحرص على المصلحة الشخصية ، وتناسي كل شيء إلا (أنا) .

إن في الموسيقى والغناء الفاسد ضياع توازن الإنسان لصالح الملكات الدنيا فيه ، والرسل عليهم الصلاة والسلام بعثوا لرفع ملكات الإنسان.

وانظر كيف يتفاعل الناس ، وكيف يتحركون ، وكيف يصيحون ، وكيف يستغرقون ، وفيم يتأملون ، وإلام تنصرف تصوراتهم وأذهانهم إذا سمعوا فلانة أو فلاناً ، تعرف ببساطة أن هذا كله يقف في الطرف المعاكس لما دعا إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام .

٥ – وما ذكرناه كله في الحقيقة ليس لصالح الإنسان في الأمة ، وليس لصالح الأمة ، بل هو لغير صالحها ، بتحطيم حيويتها وعواطفها الصحيحة ، وقواها المعنوية كلها ، وفي ذلك عقاب أي عقاب ، وعذاب أي عذاب يعانيه الإنسان أمام كل منظر من مناظر الاستهتار بالواجب ، وما أكثرها عندما تميع أخلاق الأمة على موائد اللهو والطرب ، وأمام سماعة الراديو وشاشة التليفزيون .

٩ ـ المحاباة في تطبيق القانون

يقول عليه السلام : (إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) رواه الخمسة .

فالأصل في شريعة الله أن الجميع أمامها سواء ، فإذا ما حدث أن الأمة قامت

حكومتها على تنفيـــذ القانون على بعض الناس ، ومحاباة الآخرين ، فإن عقوبات الفطرة تلحقها مباشرة .

ومن هذه العقوبات : أن تفقد هذه الحكومة هيبتها ، وثقة الناس بها ، وبالتالي سيطرتها .

ومن هذه العقوبات : أن تزداد الجرائم وتعم ، لأن الناس إما شريف ناج من العقـاب لشرفه فلا يبالي مهما ارتكب من جرائم ، وإما ضعيف يقلد الأشراف في جرائمهم ولا يعدم أن يجد شريفاً يشفع له .

ومن هذه العقوبات : أن يألف الناس بعد ذلك المنكر ، وأن يعيشوه ، ويصبح الخير غريباً ، وعندئذ يبدأ الخلل يعم كل شيء .

ومن هذه العقوبات : أن يصاب الناس نتيجة لعدم طَوْل القانون كل الناس بالخوف ، إذ لا ينال كل معتد عقابه ، فيخاف الإنسان على ماله وعرضه ونفسه وفي ذلك عذاب .

ومن هذه العقوبات : أن المظلوم ييأس أن ينال حقه فيتذمر ، ويعم التذمر كلما ازداد الانحراف سعة ، فيحدث الشقـاق بين أبناء الأمـــة ، والنزاع والثورات على الدولة ، وتضطرب الأمور ويصبح النـــاس ولديهم قابلية لكل داعيــة إلى خروج على الدولة أو إطاحة بها .

وهذا بعض ما في هذا الانحراف من عقوبة .

١٠ ـ التفريط في العلم

إن أي جزء من أجزاء العلوم المفروضة فرض عين ، أو فرض كفاية نفرّط به ، يترتب على ذلك عقوبة فطرية ، وأي علم مكروه أو محرم نتعلمه أو نتساهل في تعليمه ، يترتب على ذلك عقوبات فطرية .

فمثلا عندما نفرط في تعلم الأخلاق الصالحة ، وتعليمها ، ينشأ الإنسان ولم يحصّل الحد الأدنى من التهذيب ، فتكون النتائج أنه يعذّب غيره ويعذّب فترى الإنسان يَسْخَرُ من غيره ، ويؤذيه ويشتمه ويعرض عنه ولا يحترمه . وكما يعامل الناس يعامله الناس ، وفي ذلك

عذاب لكل فرد في ذلك المجتمع المفرط .

وعندما نفرط في تعلم فرض من فروض الكفاية نصبح محتاجين لغيرنا فيه ، وغيرنا قد يضغط علينا ويشرط شروطاً لغير صالحنا ، أو يغشنا ، فيضرنا من حيث أردنا أن ننتفع منه ، وفي ذلك كله عذاب .

وعندما نسمح للكتب المضرة أن تنتشر بين أيدي الناس فأول ما نصاب نتيجة لذلك أن وقت الناس يضيع في غير الطريق الصحيح ، ثم تظهر ثمرات هـــذه الكتب في آراء الناس وأفكارهم ، فتبعدهم عن صفــاء الفطرة الإسلامية ، فيختلف النــاس ، وتضطرب آراؤهم ، ويكون بعد ذلك التخلخل والعذاب « ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبله » « أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض ».

وهكذا في كل جزء من أجزاء العلم فرطنا به ، وجوداً حيث لا يجوز وجوده ،وعدماً حيث يجب أن يكون .

●

هذه أمثلة عشرة رأينــــا في كل منها كيف أن الانحراف عن أمر الله عقوبته الفطرية موجودة فيه ، لا نستثني من ذلك سنة أو واجباً أو فريضة أو مكروهاً أو حراماً .

إن ترك سنة السواك يؤدي إلى فساد الأسنان ، وإيذاء الآخرين بالمنظر والرائحة .

وترك ستر العورة يؤدي إلى جفــــاف بعض الأخلاق الأساسية في التربيــة الإسلامية وتبخرها كالحياء ، وفي ذلك مفسدة تظهر آثارها في أشياء كثيرة .

وترك الصلاة يترتب عليــه موت العقيدة بموت القلب الذي يحملهــــا ، وموت القلب تترتب عليه الغفلة عن الله ورسوله وشريعته . والانحراف عن العبودية لله سقوط فيعبودية غيره من هوى وصنم وإنسان وطبقة،وعبودية الإنسان للانسان أو للشيطان شيء فظيـع ، إذ لا تبقى للانسان قيمــة ، ولا يبقى له مثل ، بــــل يفقد كل يوم شيئاً من أصالة فطرته لتستقر حيوانيته بعد ذلك .

إن الناس لو عقلوا ما يصيبهم نتيجة الانحراف عن الإسلام أو عن أي جزء فيه لمــــا اطمأنت قلوبهم وعقولهم إلا على طاعة أمر الله باتباع شريعته،ولكنهم لا يزالون ينحرفون

ويعذبون ويظلمون أنفسهم ولا يعقلون .

•

وقد سمى الاستاذ سيد قطب هذا المعنى وهو مـا يترتب على الانحراف عن دين الله والإيمـان به بعقوبة الفطرة ، وكتب فصلا ممتعاً حول هذا الموضوع في كتابه (الاسلام ومشكلات الحضارة) ننقله كله لما فيه من حجة بالغة ونذير مبين .

يقول :

لم يكن بد وقد شرد الإنسان عن ربه ومنهجه وهداه.. وعبد الإنسان نفسه واتخذ إلهه هواه . وجهل الإنسان نفسه كذلك ، وراح يخبط في التيه بلا دليل . وأقـام منهج حياته على قواعد من هـذا الجهل ، ومن ذلك الهوى . واعتدى على فطرته التي فطره الله عليها ، في حموة الشرود من ربه وفطرته ومنهجه .

لم يكن بد وقد رفض الإنسان تكريم ربه له ، فاعتبر نفسه حيواناً – وقد أراده الله إنساناً – وجعل نفسه آلة – وقد أراده الله مهندساً للآلة . بل جعل الآلة إلهـاً يحكم فيه بما يريد . وجعل المادة إلهاً ، يحكم فيه بما يريد . وجعل الاقتصاد إلهاً يحكم فيه بما يريد – وقد أراد له ربه أن يكون سيد المادة وسيد الاقتصاد . ولكنه رفض هذا التكريم كله لينجو فقط من الكنيسة ، ويشرد من إله الكنيسة !

لم يكن بد وقد جعل الإنسان من المرأة حيواناً لطيفاً – كما أن الرجل حيوان خشن – غاية الالتقاء بينهما اللذة ، وغاية الاتصال بينهما المتاع . ونسي أن الله يرفع هـذه العلاقة ويطهرها ويزكيها ، وينوط بها امتداد الحياة من جهـة ، وترقية الحياة من جهة أخرى ، ويربط بها عجلة التمدن الإنساني ، ويجعل من الأسرة محضن المستقبل ، ويجعـل من المرأة حارسة الانتاج النفيس .. نتاج المادة الإنسانية .. ويصونها من التبذل كي لا تكون مجرد أداة لذة . ويصونها من الاشتغال بإنتـاج المواد في المصنع وهي في الأسرة تنتج وتحرس مادة (الانسان) .

لم يكن بد وقد عطل الإنسان خصائصه (الإنسانية) ليحصر طاقته في الانتاج المادي ، وأقام حياته كلها على أساس مادي ، وتصور مادي ، وكبت الجوانب الحية المرفرفـة

اللطيفة في حسه ، والتي وهبها الله له لأنه (الإنسان) الخليفة الفذة في هذا الكون، والتي تجعل المتناقضات كلها في تناسق بديــع .

لم يكن وقد أقام الإنسان نظامه على الربا، ليكد القطيـع البشري كله في خدمة بضعة آلاف من مؤسسي البيوت الماليـــة والبنوك المرابين ، تعود إليهم حصيلة كد البشرية في أقاصي الأرض وهم قابعون وراء المكاتب الفخمة، والنظريات الاقتصادية ، وجميع أجهزة التوجيه والاعلام .

وفي النهاية .. لم يكن بد وقد اتخذ الانسان له آلهة من دون الله ، فاتخذ من المـــال إلهاً ، ومن الهوى إلهاً ، ومن المادة إلهاً ، ومن الانتاج إلهاً ، ومن الأرض إلهاً، ومن الجنس إلهاً، ومن المشرعين له آلهة يغتصبون اختصاص الله في التشريـع لعباده ، فيغتصبون بذلك حق الألوهية على عباد الله .. كل هذه الآلهة اتخذها وعبدها ، ليهرب من الله ويستنكف عن عبادته !!!

لم يكن بد وقد فعل الإنسان هذا كله بنفسه أن تحل به عقوبة الفطرة ، وأن يؤدي ضريبة المخالفة عن ندائها العميق .. وأن يؤديها فادحة قاصمة مدمرة ..

وقد كان ..

كان ... وأداها من نفسه وأعصابه. ومن بدنه وعافيته. ومن سعادته وطمأنينته ومن مواهبه وخصائصه . ومن دنياه وآخرته .

أداها – وفي الأمم التي بلغت ذورة الحضارة المادية بالذات – تناقصاً في النسل يهدد بالانقراض . وتناقصاً في الخصائص الإنسانيـة يوحي بالنكسة إلى البربرية . وتناقصاً في الذكاء والمستوى العقلي يهدد بانهيار العلم الذي قامت عليه الحضارة ، وبانهيـــار الحضارة ذاتها في النهاية .

وظهرت آثار الكبت للطاقات الأخرى التي لا تحتاج إليها الصناعة بطرائقها الحاضرة، وآثار القلق على المستقبل في المجتمع المادي المتناحر ، وآثار الخواء الروحي الذي تفرضه الفلسفات والأوضاع في المدنية الكافرة .. ظهرت آثارهـــا في صورة الأمراض العصبية والعقلية والنفسية ، والعته والجنون والشذوذ والانحراف والجريمة .

وظهرت آثار التوجيه المتواصـل إلى حيوانية الإنسان وماديته وسلبيته ، وإطلاق

شهواته وغرائزه من كل ضابط .. ظهرت في صورة الانحلال واللامبالاة والسلبية ، وقبول الديكتاتوريات وحياة القطيع التي لا هدف لها إلا الفساد واللقاح والطعام والشراب .

وكتب على البشرية أن تؤدي الضريبة فادحة صارمة ثقيلة : حروباً رهيبة ضحاياها بالملايين قتلى وجرحى ومشوهين ومعتوهين ومعذبين . وأزمات تلو أزمات .. أزمات إذا قل الإنتاج ، وأزمات إذا زاد الإنتاج ، أزمات إذا مال الميزان التجاري إلى العجزة ، وأزمات إذا مال الميزان التجاري إلى الزيادة . أزمات إذا نقصت المحصولات ، وأزمات إذا فاضت المحصولات . وأزمات إذا قل النسل ، وأزمات إذا زاد النسل . وتخبط من هنا وتخبط من هناك . وقلق وحيرة واضطراب وعدم استقرار . وضغط على أعصاب الناس لا تطيقه بنيتهم ، فيخرون أمواتاً بالسكتة وتفجر المخ ، أو يخرون أشلاء أو مجانين ، كما لو كانت قد سلطت عليهم قوى المردة الأسطورية من حيث لا يحتسبون .. وما سلطت عليهم سوى أنفسهم . وما كان إلا نذير الله الذي لم تتفتح له القلوب والآذان .

« ومن يبدل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب » .. (البقرة: ٢١١)

« ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل » .. (البقرة: ١٠٨)

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين. ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ... (الأعراف : ١٥٧-١٧٦) .

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس . ذلك بأنهم قالوا : إنما البيع مثل الربا — وأحل الله البيع وحرم الربا — فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف ، وأمره إلى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربي الصدقات . والله لا يحب كل كفار أثيم » .. (البقرة : ٢٧٥-٢٧٦) .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا — إن كنتم مؤمنين — فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله » .. (البقرة : ٢٧٨-٢٧٩)

« والعصر إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحـــات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ». (سورة العصر)

●

والآن نأخذ في عرض أقوال الشهود عن بروز آثار الحضارة المادية وتضخمها في الأمم التي وصلت إلى قمة الحضارة .. فنستوفي بهذا عناصر المأساة الأربعة - كما أشرنا إليها في مقدمة هذا البحث .

وقد أخذنا شهودنا من درجات متفاوتة . ومن بيئات مختلفة : منهم العالم المحقق المؤمن بالعلم ، المعتمد عليه في مواجهـة المأساة .. ولا سواه .. ومنهم الفيلسوف الذي لا يؤمن بالدين ، ومع ذلك يرى على ضوء العقل الخطر الذي تتردى فيه البشرية .. ومنهم الباحث المؤمن بالدين وبالعقل وبالعلم وبفطرة الإنسان العارف في الوقت نفسه بمكان كل من هؤلاء في مجال المعرفة ومجـال العلاج .. ومنهم الطبيبة التي تقدر جدية الموضوع فتعالجه بالجـد الذي يستحقه .. منهم الصحفي الذي لا يعنيه من المسألة إلا العرض الصحفي والتشويق والإغراء .

وقد اكتفينا بهذه الشهادات من عشرات مثلها ، لأنه لا سبيل لإثبات كل الشهادات ، واستدعاء كل الشهود ، في فصل من كتاب !

●

يبدأ الدكتور ألكسيس كاريل شهادته بالكلام عن مخالفة البشر لما يسميه (القوانين الطبيعية) — ونسميه نحن (قوانين الفطرة التي فطر الله الناس عليهـا) — والعواقب التي لا بد أن يلقاها من يخالف هذه القوانين الصلبة التي لا تلين ، ولا تترك مخالفيها بلا عقوبة، ثم يأخذ في بيان ما حل بالبشرية فعلاً من هذه العقوبة :

قبل أن أبدأ هذا الكتاب، كنت أدرك تماماً صعوبة هذا العمل بل استحالته تقريباً. ولكنني شرعت فيه لأنني كنت أعلم أن شخصاً ما لا بد سيؤديه .. **لأن الناس لا يستطيعون أن يتبعوا الحضارة العصرية في مجراها الحالي ، لأنهم آخذون في التدهور والانحطاط .**

لقد فتنهم جمال علوم الجماد . إنهم لم يدركوا أن إحساسهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية – وهي قوانين أكثر غموضاً وإن كانت تتساوى في الصلابة مع القوانين الدنيوية – كذلك فهم لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتمدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم . ومن ثم يجب أن يتعلموا العلاقات الضرورية للعالم الدنيوي ولأترابهم أبناء آدم ، ولذاتهم الداخلية وتلك التي تتصل بأنسجتهم وعقولهم . فإن الإنسان يعلو كل شيء في الدنيا فإذا انحط وتدهور فإن جمال الحضارة بل حتى عظمة الدنيا المادية لن تلبث أن تزول وتتلاشى . لهذه الأسباب كتبت هذا الكتاب).. (ص١٠-١١).

(الإنسان نتيجة الوراثة والبيئة وعادات الحياة والتفكير التي يفرضها عليه المجتمع العصري .. ولقد وصفنا كيف تؤثر هذه العادات في جسمه وشعوره ، وعرفنا أنه لا يستطيع تكييف نفسه بالنسبة للبيئة التي خلقتها التكنولوجيا ، وإن مثل هذه البيئة تؤدي إلى انحلاله . وإن العلم والميكانيكا ليسا مسئولين عن حالته الراهنة ، وإنما نحن وحدنا المسؤولين . لأننا لم نستطع التمييز بين الممنوع والمشروع لقد نقضنا قوانين الطبيعة فارتكبنا بذلك الخطيئة العظمى ، الخطيئة التي يعاقب مرتكبها دائماً .. إن مبادىء (الدين العلمي) والآداب الصناعية قد سقطت تحت وطأة غزو الحقيقة البيولوجية) .

.. فالحياة لا تعطي إلا إجابة واحدة حينما تستأذن في السماح بارتياد الأرض المحرمة.. هي إضعاف السائل . ولهذا فإن الحضارة آخذة في الانهيار . لأن علوم الجماد قادتنا إلى أرض ليست لنا. فقبلنا هداياها جميعاً بلا تمييز ولا تبصر. ولقد أصبح الفرد ضيقاً متخصصاً فاجراً ، غبياً ، غير قادر على التحكم في نفسه ومؤسساته ..(ص٣٢٢) .

(إن الصفة الغالبة على الفرد في الحضارة العصرية هي الإفراط في النشاط الذي يوجه كله نحو الجانب العملي من الحياة. كذا يتصف الفرد بكثير من الجهل وحد معين من الذكاء. وأيضاً بنوع من الضعف العقلي ، الذي يتركه تحت تأثير البيئة التي يتفق وجوده فيها .. ويبدو أن العقل نفسه لا يلبث أن يستسلم حينما تضعف الأخلاق).. (ص ٣٦)

(يبدو ان الحضارة العصرية عاجزة عن إنجاب قوم موهوبين من ناحية الخيال والذكاء والشجاعة . ففي كل بلد يوجد تناقص في المستوى العقلي والأدبي لأولئك المسؤولين عن الشؤون العامة). . (ص٣٧)

(إننا قلما نشاهد أفراد يتبعون مثلاً أخلاقياً أعلى في تصرفاتهم في المدنية العصرية) . (ص ١٦٠)

(إن أولئك الذين يستشعرون مجرد الإحساس البدائي بالجمال في عملهم أكثر سعادة من أولئك الذين ينتجون ، لأن مجرد الإنتاج يمكنهم من الاستهلاك . إن الصناعة – بشكلها الحالي – حرمت العامل من الابتداع والجمال) .. (ص١٦٢)

(إن امتناع نمو وجوه النشاط العاطفي والجمالي أو الديني يخلق أشخاصاً في المرتبة الدنيا ذوي عقول ضعيفة غير سليمة . وبالرغم من أن التعليم العقلي يهيأ الآن لكل فرد، إلا أننا ما زلنا نشاهد أمثال هؤلاء الأشخاص في كل مكان) (ص١٦٨)

(فأكثر الناس تمديناً يظهرون شكلاً بدائياً فقط من الشعور . إنهم قادرون على العمل السهل الذي يؤمن حياة الفرد في المجتمع العصري . إنهم ينتجون ويستهلكون ويرضون شهواتهم الفسيولوجية . وهم أيضاً يسرون بمشاهدة المباريات الرياضية والأفلام السينمائية الصبيانية الخشنة . كما يسرون حينما ينتقلون بسرعة من مكان إلى آخر بدون بذل أي جهد، وحينما يتطلعون إلى الأشياء السريعة الحركة . إنهم ناعمون عاطفيون شهوانيون ، قساة ، مجردون من الإحساس الأدبي والديني والشعور بالجمال). (ص١٦٩)

(إن عدم التناسق في دنيا الشعور ظاهرة مميزة لعصرنا) .. (ص١٧٠)

(في استطاعة التفكير أن يولد أمراضاً عضوية بصفة عامة . ومن ثم فإن عدم استقرار الحياة العصرية والانفعال الدائم وانعدام الأمن تخلق حالات من الشعور تجلب الاضطرابات العصبية والعضوية للمعدة والأمعاء . كذا نقص التغذية، وتسرب الجراثيم المعوية إلى الدورة الدموية .. والتهاب الكلى وما يصحبه من أمراض الكلى والمثانة إن هي إلا النتائج البعيدة لعدم التوازن العقلي والأدبي .. ومثل هذه الأمراض تكاد تكون غير معروفة في الجماعات التي تحيا حياة بسيطة وليست على القدر الذي ذكرناه من الانفعال ، كما أن القلق فيها غير دائم .. وبالمثل فإن الأشخاص الذين يحافظون على سلام ذاتهم الباطنية ، وسط ضوضاء المدنية الحديثة محصنون ضد الاضطرابات العصبية والعضوية) .. (ص١٧٧).

« يجب أن يظل النشاط الفسيولوجي خارج حقل الشعور . إذ أنه لا يلبث أن يصاب بالاضطراب حينما نوليه اهتمامنا . ولذلك فإن (التحليل النفسي) حينما يوجه عقل المريض

نحو نفسه قد يزيد من حالة عدم التوازن . ومن ثم فإنه من الأفضل أن يهرب الإنسان من نفسه ببذل جهد لا يشتت عقله بدلاً من الاستغراق في تحليل نفسه .. إذ أننا حينما نوجه نشاطنا نحو غاية محددة نجعل وظائفنا العقلية والعضوية كاملة التناسق . لأن توحيد الرغبات وتوجيه العقل نحو غاية واحدة ينتج ضرباً من السلام الداخلي . ولكن الإنسان يشتت نفسه بالتفكير مثلما يشتتها بالعمل .. ومع ذلك فإنه يجدر به ألا يقنع بتأمل جمال المحيط ، أو الجبال والسحب ، وروائع ما أنتجه الفنانون والشعراء ، والمبادىء السامية التي تمخضت عنها عقول الفلاسفة ، والعمليات الحسابية التي تعبر عن القوانين الطبيعية .. وإنما يجب عليه أيضاً أن يكون الروح التي تكافح لبلوغ مثل أدبي عال ، وتبحث عن النور في ظلمات هذا العالم وتسير قدماً في طريق الدين ، وتنبذ نفسها لكي تفهم الأساس غير المنظور لهذا العالم. إن توحيد نشاط الشعور يؤدي إلى تناسق أعظم بين الوظائف العضوية والعقلية .

ولهذا ندر أن توجد الأمراض العصبية وأمراض التغذية ، والإجرام ، والجنون ، بين الجماعات التي نما فيها الشعور الأدبي والعقلي في وقت واحد ، كما يكون الفرد أكثر سعادة في مثل هذه الجماعات) .. (ص٢٧٧–١٧٨)

إن الحضارة لم تفلح حتى الآن في خلق بيئة مناسبة للنشاط العقلي ، وترجع القيمة العقلية والروحية المنحطة لأغلب بني الإنسان – إلى حد كبير – إلى النقائص الموجودة في جوهم السكلوجي . إذ أن تفوق المادة ، ومباديء دين الصناعة حطمت الثقافة والجمال والأخلاق ... كما أن الجماعات الاجتماعية الصغيرة التي لها شخصيتها وتقاليدها الخاصة تحطمت بفعل التغيرات التي طرأت على عاداتها . وقد تدهورت الطبقات المثقفة لانتشار الصحف انتشاراً واسع المدى كذا الأدب الرخيص ، والراديو ودور السينما.. ومن ثم فإن ازدياد الطبقة الغبية آخذ في الازدياد أكثر فأكثر بالرغم من كمال المناهج التي تدرس في المدارس والكليات والجامعات .. ومن العجيب أن بلادة الذهن توجد غالباً حينما تتقدم المعرفة العلمية !

(إن أطفال وطلبة المدارس يكوّنون عقلهم من البرامج السخيفة التي توضع لوسائل التسلية العامة . ومن ثم فإن البيئة الاجتماعية تناهض نمو العقل بكل قوتها بدلاً من أن

تعمل على هذا النمو) (ص١٤٨).

(كما أن الشذوذ الجنسي آخذ في الانتشار بعد أن طرحت الآداب الجنسية جانباً ، وأصبح المحللون النفسانيون يستعرضون حياة الرجال والنساء الزوجية . ولم يعد هناك فرق بين الخطأ والصواب . والعدل والظلم. فالمجرمون يتمتعون بالحرية بين جمهرة السكان، وليس هناك من يبدي اعتراضاً على وجودهم.. ولقد جعل القساوسة الدين شبيهاً بالتموين، لكل فرد منه قسط معين . وحطموا الأسس الغامضة ، ولكنهم لم ينجحوا في اجتذاب القوم العصريين . ومن ثم فإنهم يعظون عبثاً أصحاب الأخلاق الضعيفة في كنائسهم نصف الفارغة كل أسبوع) .

(إنهم قانعون بدور الرجل البوليس الذي يؤدونه. فهم يساعدون الأغنياء ومصالحهم لكي يحفظوا إطار المجتمع الحالي أو يتملقون شهوات الجمهور مثلما يفعل الساسة) !.. (ص ١٨٦) .

(ليس العقل قوياً كالجسم . ومن العجيب أن الأمراض العقلية أكثر عدداً من جميع الأمراض الأخرى مجتمعة . ولهذا فإن مستشفيات المجاذيب تعج بنزلائها . وتعجز عن استقبال جميع الذين يجب حجزهم .. ويقول س.و. بيرس (إن شخصاً من كل ٢٢ شخصاً من سكان نيويورك يجب إدخاله أحد مستشفيات الأمراض العقلية بين آن وآخر)..

وفي الولايات المتحدة تبدي المستشفيات عنايتها لعدد من ضعاف العقول يعادل أكثر من ثمانية أمثال المصدورين . ففي كل عام يدخل مصحات الأمراض العقلية وما يماثلها من المؤسسات حوالي ستة وثمانين ألف حالة جديدة. فإذا استمر عدد المجانين في السير على هذا المعدل فإن حوالي مليون من الأطفال والشبان الذين يذهبون الآن إلى المدارس والكليات سوف يدخلون إلى المصحات عاجلاً أو آجلاً !

ففي عام ١٩٣٢ كان عدد المجانين المودعين بالمستشفيات الحكومية ٣٤٠,٠٠٠ مجنون كما كان عدد ضعاف العقول والمصروعين والمحجوزين في المصحات الخاصة ٨١،٥٨٠ وكان عدد مطلقي السراح بشرط كلمة الشرف من ضعاف العقول ١٠,٩٣٠ ، ولا تشمل هذه الإحصاءات الحالات العقلية التي تعالج في المستشفيات الخاصة ، وعلاوة على المجانين يوجد في البلاد كلها ٥٠٠,٠٠٠ شخص ضعاف العقول ولقد كشف الفحص الذي تولته اللجنة

الوطنية للصحة العقلية بعناية عن أن ٤٠٠,٠٠٠ طفل على الأقل على مستوى منخفض من الذكاء إلى درجة أنهم لا يستطيعون الاستمرار في المدارس العامة والإفـادة مما يتلقون من علم .. وحقيقة الأمر أن عدد الأفراد الذين انحطوا عقلياً أكثر من ذلك بكثير. ويقدر أن عدة مئات من الآلاف لم تشملهم الإحصاءات الرسمية مصابون باضطرابات نفسية . **وتدل هذه الارقام على مدى استعداد شعور الرجل المتحضر للعطب وكيف ان مشكلةالصحة العقلية تعتبر من اهم المشاكل التي يواجهها المجتمع العصري . فان امراض العقل خطر داهم : انها اكثر خطورة من السل والسرطان وامراض القلب والكلى . بل والتيفوس والطاعون والكوليرا . فيجب ان يحسب للأمراض العقلية حسابها لا لانها تزيد عـــدد المجرمينفحسب بللانها ستضعف حتماً التفوقالذي تتمتع به الأجناس البيضاء حالياً ..** على أنه يجب أن يكون مفهوماً أنه لا **يوجد ضعاف عقول** ومجانين بـين المجرمين بالكثرة التي يوجد بها بين أفراد الشعب ! صحيح أن عدداً كبيراً ممن يعانون من النقـائص العقلية موجود في السجون . بيد أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن أكثر المجانين واسعي الثقافة ما زالوا مطلقي السراح) .

(ولا شك أن كثرة عدد مرضى الأعصاب والنفوس دليل حاسم علىالنقص الخطر الذي تعاني منه المدنية العصرية وعلى أن عادات الحياة الجديدة لم تؤد مطلقاً إلى تحسين صحتنا العقلية) .. (ص١٨٧–١٨٨)

(هناك أشكال معينة منالحياة العصرية تؤدي مباشرة الى الانحلال كما توجد أحوال اجتماعية تهلك الجنس) .. (ص٢٦٤) .

(إن في استطاعة الإنسان أن يتساءل بحق عمـــا إذا كانت الشخصية العقلية لا تزال موجودة في الرجـــال العصريين ! بل إن بعض المراقبين يرتابون في حقيقتها (فتيودور دريزر) يعتبرها أسطورة خرافية ، والحقيقة أن سكان المدينة الحديثة يظهرون تشابهاً كبيراً في ضعفهم العقلي والأدبي . فمعظم الأفراد ينتمون إلى طراز واحد. إنهم خليط من الأشخاص مضطربي الأعصاب بليدي الشعور مغرورين معدومي الثقة بأنفسهم ، أصحاب قوة عظيمةوإن كانوا سريعي التعب. يعانون حدة الدوافع الجنسية برغم ضعفهم وشذوذهم أحياناً) .. (ص ٣١٦).

●

هذه فقرات مقتضبة من شهادة دكتور كاريل خاصة (بالانسان) عامـة في الحضارة العصرية .. وهناك جانب آخر أحببنا أن نفرده وحده . وهو شهادته فيما يختص بقضيـة المرأة وعلاقات الجنسين في هذه الحضارة وأخطارهـا على وجود الجنس البشري ، وعلى مستواه العقلي والأدبي .

ونحب أن ندعه هو يدلي بشهادته (العلمية) دون تعليق :

(علينا أن نستوثق من الكيفية التي ستؤثر بها طريقة الحياة في مستقبل الجنس . لقد كانت استجابة النساء للتعديلات التي أدخلتها الحضارة الصناعية على عـــادات الأسلاف سريعة قاطعة ، إذ نقص معدل المواليد فوراً . وقـــد تبين أثر ذلك بوضوح ، كما لمست نتائجه الخطيرة في الطبقات الاجتماعية وفي الأمم التي سبقت غيرهـا في الانتفـاع بالتقدم الذي حققته – إمـــا مباشرة أو بطريقة غير مباشرة – بتطبيق الاكتشافات العلمية . فالتعقيم الاختياري ليس جديداً في تاريخ العالم . فقد عرف في مرحلة معينة من مراحـل المدنية السابقة .. إنه ظاهرة علمية نعرف دلالتها) .. (ص٣٧) .

(ان الاختلافات الموجودة بين الرجل والمرأة لا تأتي من الشكل الخاص للأعضاء التناسلية ومن وجود الرحم والحمل أو من طريقة التعليم . إذ أنهـــا ذات طبيعة أكثر أهمية من ذلك .. انهـــا تنشأ من تكوّن الأنسجة ذاتها ، ومن تلقيح الجسم كله بمواد كيماوية محددة يفرزها المبيض ... ولقد أدى الجهل بهذه الحقائق الجوهرية بالمدافعين عن الأنوثة الى الاعتقاد بأنه يجب ان يتلقى الجنسان تعليماً واحـــداً وأن يمنحا سلطات واحدة ومسؤولية متشابهة .. والحقيقة ان المرأة تختلف اختلافاً كبيراً عن الرجـل . فكل خلية من خلايا جسمها تحمل طابع جنسها. والأمر نفسه صحيح بالنسبة لأعضائها. وفوق كل شيء بالنسبة لجهازها العصبي . فالقوانين الفسيولوجية غير قابلة للين، شأنها شأن قوانين العالم الكوكبي . فليس في الامكان إحلال الرغبات الانسانية محلها . ومن ثم فنحن مضطرون الى قبولها كما هي . فعلى النساء أن ينمين أهليتهن تبعاً لطبيعتهن دون أن يحاولن تقليد الذكور. فان دورهن في تقدم الحضارة أسمى من دور الرجال. فيجب عليهن الا يتخلين عن وظائفهن المحددة) ..(ص١١٤)

(إن الأب والأم يساهمان بقدرٍ متساوٍ في تكوين نواة البويضة التي تولد كل خلية من خلايا الجسم الجديـــد . ولكن الأم تهب علاوة على نصف المادة النووية كل البروتوبلازم

المحيط بالنواة .. وهكذا تلعب دوراً أهم من دور الأب في تكوين الجنين) .. (ص١١٥).

(إن دور الرجل في التناسل قصير الأمد. أما دور المرأة فيطول إلى تسعة أشهر وفي خلال هـذه الفترة يغذى الجنين بمواد كيماوية ترشح من دم الأم من خلال أغشية الخلاص. وبينما تمد الأم جنينها بالعناصر التي تتكون منها أنسجته فإنها تتسلم مواد معينة تفرزها أعضاء الجنين. وهذه المواد قد تكون نافعة وقد تكون خطرة. فحقيقة الأمر أن الجنين ينشأ تقريباً من الأب مثلما ينشأ من الأم. فإن مخلوقاً من أصل غريب – جزئياً – قد اتخذ له مأوى في جسم المرأة. فتتعرض المرأة لتأثيره خلال فترة الحمـل. وقد تتسم المرأة في بعض الأحيان بواسطة جنينها، كما أن أحوالها الفسيولوجية والسيكولوجية تعدل بـه دائماً .. وعلى أي حـال يبدو أن النساء – من بين الثدييات – هن فقط اللائي يصلن إلى نموهن الكامل بعد حمل أو اثنين. كما أن النساء اللائي لم يلدن لسن متزنات توازنـاً كاملاً كالوالدات. فضلاً عن أنهن يصبحن أكثر عصبية منهن .. صفوة القول أن وجود الجنين، الذي تختلف أنسجته اختلافاً كبيراً عن أنسجة الأم، بسبب صغرها ولأنهـا – جزئياً – من أنسجة زوجها، تحدث أثراً كبيراً في المرأة. **إن أهمية وظيفة الحمل والوضع بالنسبة للأم لم تفهم حتى الآن الى درجة كافية. مع انهذه الوظيفة لازمة لاكتمال نمو المرأة.. ومن ثم فمن سخف الرأي ان نجعل المرأة تتنكر الأمومة. ولذا يجب ألا تلقن الفتاة التدريب العقلي والمادي ولا ان تبث في نفسها المطامع التي يتلقاها الفتيان وتبث فيهم.. يجب ان يبذل المربون اهتماماً شديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى. كذا لوظائفها الطبيعية. فهناك اختلافات لا تنقض بين الجنسين. ولذلك فلا مناص من ان نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عالم متمدين**) (ص١١٦-١١٧).

(أليس من العجيب أن برامج تعليم البنـات لا تشتمل بصفة عامـة على أية دراسة مستفيضة للصغار والأطفال وصفاتهم الفسيولوجية والعقلية؟ يجب أن تعاد للمرأة وظيفتها الطبيعية التي لا تشتمل على الحمل فقط. بل أيضاً على رعاية صغارها) . (٣٦٨-٣٦٩)

واخيرا :

(من المعروف ان الافراط الجنسي يعرقل النشاط العقلي. ويبدو أن العقل يحتاج الى وجود غدد جنسية حسنة النمو، وكبت مؤقت للشهوة الجنسية حتى يستطيـع أن يبلغ منتهى قوته .. ولقد أكد فرويد عن حق الأهمية القصوى للدوافع الجنسية في

وجوه نشاط الشعور . ومع ذلك فان ملاحظاته تتعلق بالمرضى على الأخص . ومن ثم يجب ألا تعم استنتاجاته بحيث تشمل الأشخاص العاديين وبخاصة أولئك الذين وهبوا جهازاً عصبياً قوياً وسيطرة على انفسهم .. وبينما يصبح الضعفـاء المعتلو الاعصاب غير المتزنين اكثر شذوذاً عندما تكبت شهواتهم الجنسية فان الاقوياء يصيرون اكثر قوة بممارسة هذا الشكل من الزهد). . (ص١٧٤)

ولنأخذ شهادة (ول ديورانت) الكاتب الامريكي المتفلسف..وهو رجل لا يمكن أن يقال أنه من أعداء هذه الحضارة . فهو شديد الإعجاب بالتقدم الذي تمثله هـذه الحضارة في مجموعها وهو يبدو معارضاً للدين في جملته ، كما أنه ظاهر العداء للإسلام بصفة خاصة.. وقد نشرت له جامعة الدول العربية ترجمـة أجزاء من كتابه قصة الحضارة . ويستطيع قارىء اللغة العربية أن يلاحظ موقفه هذا من الإعجاب بهذه الحضارة في جملتها كما يلاحظ موقفه من الدين جملة وعداءه الظاهر للإسلام خاصة .

ومع هذا كله فهو يؤدي هذه الشهادة عن هذه الحضارة في كتابه (مباهج الفلسفة).

(وثقافتنا اليوم سطحية ومعرفتنا خطرة لأننا أغنياء في الآلات فقراء في الأغراض وقد ذهب اتزان العقل الذي نشأ ذات يوم من حرارة الإيمان الديني وانتزع العلم منا الأسس المتعالية لأخلاقياتنا ويبدو العالم كله مستغرقاً في فردية مضطربة تعكس تجزؤ خلقنـــا المضطرب . إننا نواجه مرة أخرى تلك المشكلة التي أقلقت بال سقراط ، نعني : كيف نهتدي إلى أخلاق طبيعية تحل محل الزواجر العلوية التي بطل أثرهـا في سلوك الناس .؟ إننا نبدد تراثنا الاجتماعي بهذا الفساد الماجن من جهة وبهذا الجنون النووي من جهة أخرى حين تفقد الفلسفة التي بدونها نفقد هذه النظرة الكليـة التي توحد الأغراض وترتب سلم الرغبات . إننا نهجر في لحظة مثاليتنا السلمية ونلقي بأنفسنا في هـــذا الانتحار الجماعي للحرب وعندنا مئة ألف سياسي وليس عندنا (رجل حـكم) واحد . إننا نطوف حول الأرض بسرعة لم يسبق لها مثيل . ولكننا لا نعرف إلى أين نذهب ولم نفكر في ذلك أو هل نجد هناك السعادة الشافية لأنفسنا المضطربة. إننا نهلك أنفسنا بمعرفتنا التي أسكرتنا بخمر القوة . ولن ننجو منها بغير الحكمة) (ص٦-٧ ج١)

(واختراع موانع الحمل وذيوعها هو السبب المباشر في تغير أخلاقنا . فقد كان القانون

الاخلاقي قديماً يقيد الصلة الجنسية بالزواج لأن النكاح كان يؤدي إلى الأبوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما ولم يكن الوالد مسؤولاً عن ولده إلا بطريق الزواج . أما اليوم فقد انحلت الرابطة بين الصلة الجنسية وبين التناسل وخلقت موقفاً لم يكن آباؤنا يتوقعونه لأن جميع العلاقات بين الرجال والنساء آخذه في التغير نتيجة هـذا العامل . ويجب على القانون الأخلاقي في المستقبل أن يدخل في حسابه هـــذه التسهيلات الجديدة التي جاءت بها الاختراعات لتحقيق الرغبات المتأصلة !) (ص ١٢٥ ج ١) .

(فحياة المدنية تفضي إلى كل مثبط على الزواج في الوقت الذي تقـدم فيه إلى الناس كل باعث على الصلة الجنسية وكل سبيل يسهل أداءها . ولكن النمـو الجنسي يتم مبكراً عما كان من قبل ، كما يتأخر النمو الاقتصادي . فإذا كان قمع الرغبة شيئاً عملياً ومعقولاً في ظل النظام الاقتصادي الزراعي فإنه الآن يبدو أمراً عسيراً وغـير طبيعي في حضارة صناعية أجلت الزواج حتى بالنسبة للرجال حتى لقد يصل إلى سن الثلاثين ولا مفر من أن يأخذ الجسم في الثورة . وأن تضعف القوة علىضبط النفس عما كان في الزمن القديم وتصبح العفة التي كانت فضيلة موضعاً للسخرية ويختفي الحيـاء الذي كان يضفي على الجمال جمالاً ويفاخر الرجال بتعداد خطاياهم وتطالب النساء بحقها في مغامرات غير محدودة على قدم المساواة مع الرجال ويصبح الاتصال قبل الزواج أمراً مألوفاً وتختفي البغايا من الشوارع بمنافسة الهاويات لا برقابة البوليس . لقد تمزقت أوصال القانون الأخلاقي الزراعي ولم يعد العالم المدني يحكم به) ... (ص ١٢٦ – ١٢٧) .

(ولسنا ندري مقدار الشر الاجتماعي الذي يمكن أن نجعـل تأخير الزواج مسؤولاً عنه . ولا في أن بعض هذا الشر يرجع إلى ما فينا من رغبة في التعدد لم تهذب لأن الطبيعة لم تهيئنا للاقتصار على زوجة واحـــدة . ويرجع بعضهـا الآخر إلى ولاء المتزوجينالذين يؤثرون شراء متعة جنسية جديـدة على الملال الذي يحسونه في حصار قلعة مستسلمة . ولكن معظم هـذا الشر يرجع في أكبر الظن في عصرنا الحاضر إلى التأجيل غير الطبيعي للحياة الزوجية . وما يحدث من إباحة بعد الزواج فهو في الغالب ثمرة التعود قبله . وقد نحاول فهم العلل الحيوية والاجتماعية في هذه الصناعة المزدهرة وقد نتجاوز عنها باعتبار أنها أمر لا مفر منه في عالم خلقه الإنسانوهذا هو الرأي الشائع لمعظم المفكرين في الوقت الحاضر . غير أنه من المخجل أن نرضى في سرور عن صورة نصف مليون فتاة أمريكية يقدمن أنفسهن ضحايا على مذبح الإباحيـة وهي تعرض علينا في المسارح وكتب الأدب

المكشوف تلك التي تحاول كسب المال باستثارة الرغبة الجنسية في الرجال والنساء المحرومين وهم في حمى الفوضى الصناعية من حمى الزواج ورعايته للصحة) .

(ولا يقل الجانب الآخر من الصورة كآبة . لأن كل رجل حين يؤجل الزواج يصاحب فتيات الشوارع ممن يتسكعن في ابتذال ظاهر . ويجد الرجل لارضاء غرائزه الخاصة في هذه الفترة من التأجيل نظاماً دولياً مجهزاً بأحدث التحسينات ومنظماً بأسمى ضروب الادارة العلمية . ويبدو أن العلم قد ابتدع كل طريقة يمكن تصورها لإثارة الرغبات وإشباعها) ... (ص ١١٧ – ص ١٢٨) .

(وأكبر الظن أن هذا التجدد في الإقبال على اللذة قد تعاون أكثر مما نظن مع هجوم داروِن على المعتقدات الدينية . وحين اكتشف الشبان والفتيات – وقد أكسبهم المال جرأة – ان الدين يشهر بملاذهم التمسوا في العلم ألف سبب للتشهير بالدين . وأدى التزمت في حجب الحياة الجنسية والزهد فيها إلى رد فعل في الأدب ، وعلم النفس صور الجنس مرادفاً للحياة . وقد كان علماء اللاهوت قديماً يتجادلون في مسألة لمس يد الفتاة أيكون ذنباً ؟ أما الآن فلنا أن ندهش ونقول : أليس من الإجرام أن نرى تلك اليد ولا نقبلها ؟ فَقَدْ فَقَدَ الناس الإيمان وأخذوا يتجهون نحو الفرار من الحذر القديم إلى التجربة الطائشة) ... (ص ١٣٤) .

(وكانت الحرب العظمى الأولى آخر عامل في هذا التغيير . ذلك أن تلك الحرب قوضت تقاليد التعاون والسلام المتكونين في ظل الصناعة والتجارة ، وعودت الجنود الوحشية والإباحية . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عاد آلاف منهم إلى بلادهم فكانوا بؤرة للفساد الخلقي . وأدت تلك الحرب إلى رخص قيمة الحياة بكثرة ما أطاحت من رؤوس ، ومهدت إلى ظهور العصابات والجرائم القائمة على الاضطرابات النفسية ، وحطمت الإيمان بالعناية الإلهية ، وانتزعت من الضمير سند العقيدة الدينية . وبعد انتهاء معركة الخير والشر بما فيها من مثالية ووحدة ، ظهر جيل مخدوع ، وألقى بنفسه في أحضان الاستهتار والفردية والانحلال الخلقي . وأصبحت الحكومات في واد ، والشعب في واد آخر ، واستأنفت الطبقات الصراع فيما بينها ، واستهدفت الصناعات الربح بصرف النظر عن الصالح العام ، وتجنب الرجال الزواج خشية مسؤوليته ، وانتهى الأمر بالنساء إلى عبودية خاملة ، أو إلى طفيليات فاسدة ، ورأى الشباب نفسه وقد منح حريات جديدة ،

تحميه الاختراعات من نتائج المغامرات النسائية في الماضي ، وتحوطه من كل جانب ملايين المؤثرات الجنسية في الفن والحياة) ... (ص ١٣٥ - ١٣٦) .

(لما كان اليوم هو عصر الآلة فلا بد أن يتغير كل شيء . فقد قل أمن الفرد في الوقت الذي نما فيه الأمن الاجتماعي ، وإذا كانت الحياة الجسمانية أعظم أمنا مما كانت ، فالحياة الاقتصادية مثقلة بألف مشكلة معقدة ، مما يجعل الخطر جاثماً كل لحظة . أما الشباب الذي أصبح أكثر إقداماً ، وأشد غروراً من قبل ، فهو عاجز مادياً ، وجاهل اقتصادياً ، إلى حد لم يسبق له مثيل . ويقبل الحب فلا يجرؤ الشباب على الزواج وجيوبه صفر من المال . ثم يطرق الحب مرة أخرى باب القلب أكثر ضعفاً (وقد مرت السنوات) ومع ذلك لم تمتلىء الجيوب بما يكفي للزواج . ثم يقبل الحب مرة أخرى أضعف حيوية وقوة عما كان من قبل (وقد مرت سنوات) فيجد الجيوب عامرة فيحتفل الزواج بموت الحب .

(حتى إذا سئمت فتاة المدينة الانتظار اندفعت بما لم يسبق له مثيل في تيار المغامرات الواهية فهي واقعة تحت تأثير إغراء مخيف من الغزل والتسلية ، وهدايا من الجوارب ، وحفلات من الشمبانيا في نظير الاستمتاع بالمباهج الجنسية . وقد ترجع حرية سلوكها في بعض الأحيان إلى انعكاس حريتها الاقتصادية . فلم تعد تعتمد على الرجل في معاشها وقد لا يقبل الرجل على الزواج من امرأة برعت مثله في فنون الحب . فقدرتها على كسب دخل حسن هو الذي يجعل الزوج المنتظر متردداً ، إذ كيف يمكن أن يكفي أجره المتواضع للإنفاق عليهما معاً في مستواهما الحاضر من المعيشة ؟

(وأخيراً تجد الرفيق الذي يطلب يدها للزواج ويعقد عليها لا في كنيسة . لأنهما من أحرار الفكر الذين ألحدوا عن الدين ، ولم يعد للقانون الخلقي الذي ظل جاثماً على إيمانهما المهجور أثر في قلبيهما . إنهما يتزوجان في قبو المكتب البلدي (الذي يفوح منه عبير الساسة) ويستمعان إلى تعاويذ العمدة . إنهما يرتبطان بكلمة الشرف بل بعقد من المصلحة ، لهما الحرية في أي وقت في التحلل منه . فلا مراسيم مهيبة ، ولا خطبة عظيمة ، ولا موسيقى رائعة ، ولا عمق ولا نشوة في الانفعال تحيل ألفاظ وعودهم إلى ذكريات لا تمحى من صفحة الذهن . ثم يقبل أحدهما صاحبه ضاحكاً ويتوجهان إلى البيت في صخب .

(إنه ليس بيتاً ! فليس ثمة كوخ ينتظر الترحيب بهما أنشيء وسط الحشائش النضرة ، والأشجار الظليلة ، ولا حديقة تنبت لهما الزهور والخضروات التي يشعران بأنها أبهى

وأحلى ، لأنها من زرع أيديهما . بل يجب أن يخفيا أنفسهما خجلاً كأنهما في زنزانة سجن ، في حجرات ضيقة لا يمكن أن تستبقيهما فيها طويلاً ولا يعنيان بتحسينها وتزيينها بما يعبر عن شخصيتهما . ليس هذا المسكن شيئاً روحياً كالبيت الذي كان يتخذ مظهراً ويكسب روحاً قبل ذلك بعشرين عاماً (الكتاب مكتوب سنة ١٩٢٩) بل مجرد شيء مادي فيه من الجفاف والبرودة ما تجده في مارستان . فهو يقوم وسط الضوضاء والحجارة والحديد حيث لا ينفذ إليه ربيع لا ينبت لهما الصيف والزرع النضر بل سيلاً من المطر . ولا يريان مع ورود الخريف قوس قزح في السماء أو أي ألوان على أوراق الشجر بل المتاعب والذكريات الحزينة .

(وتصاب المرأة بخيبة أمل . فهي لا تجد في هذا البيت شيئاً يجعل جدرانه تحتمل في الليل والنهار ولا تلبث إلا قليلاً حتى تهجره في كل مناسبة ولا تعود إليه إلا قبل مطلع الفجر . ويخيب أمل الرجل ، فهو لا يستطيع أن يتجول في أنحاء هذا البيت يعزي شعوره ببنائه واصلاح ما تصاب به أصابعه من دق المطارق . ويكتشف بعد قليل أن هذه الحجرات تشبه تمام الشبه تلك التي كان يعيش فيها وهو أعزب ، وأن علاقاته مع زوجته تشبه شبهاً عادياً تلك العلاقات غير البريئة التي كان يعقدها مع المستهترات من النساء . فلا جديد في هذا البيت ، وليس فيه ما ينمو ، ولا يمزق سكون الليل ، صوت الرضيع ، ولا يملأ مرح الأطفال النهار بهجة ، ولا أذرع بضة تستقبل الزوج عند عودته من العمل وتخفف عنه وطأته . إذ أين يمكن أن يلعب الطفل ؟ وكيف يمكن للزوجين تخصيص حجرة أخرى للاطفال وتوفير العناية بهم وتعليمهم سنين طويلة في المدينة ؟ والفطنة فيما يظنان أفضل جوانب الحب .. فيعتزمان منع النسل .. إلى أن يقع بينهما الطلاق !

(ولما كان زواجهما ليس زواجها بالمعنى الصحيح — لأنه صلة جنسية لارباط أبوة فإنه يفسد لفقدانه الأساس الذي يقوم عليه ومقومات الحياة . يموت هذا الزواج لانفصاله عن الحياة وعن النوع . وينكمش الزوجان في نفسيهما وحيدين كأنهما قطعتان منفصلتان ، وتنتهي الغيرية الموجودة في الحب إلى فردية يبعثها ضغط الحياة الساخر . وتعود إلى الرجل رغبته الطبيعية في التنويع حين تؤدي الألفة إلى الاستخفاف . فليس عند المرأة جديد تبذله أكثر مما بذلته .. (ص ٢٢٣ — ٢٢٦) .

(ولندع غيرنا من الذين يعرفون يخبرونا عن نتائج تجاربنا . أكبر الظن أنها لن تكون شيئاً نرغب فيه أو نريده . فنحن غارقون في تيـــار من التغيير ، سيحملنا بلا ريب إلى نهايات محتومة لا حيلة لنا في اختيارها وأي شيء قد يحدث مع هذا الفيضان الجارف من العادات والتقاليد والنظم. فالآن وقد أخذ البيت في مدننا الكبرى في الاختفاء ، فقـدْ فقدَ الزواج القاصر على واحدة جاذبيته الهامة . ولا ريب أن زواج المتعة سيظفر بتأييد أكثر فأكثر حيث لا يكون النسل مقصوداً . وسيزداد الزواج الحر ، مباحاً كان أم غير مباح ومع أن حريتها إلى جانب الرجل أميل. فسوف تعتبر المرأة هذا الزواج أقل شراً من عزلة عقيمة تقضيها في أيام لا يغازلها أحـد . سينهار (المستوى المزدوج) وستحث المرأة الرجل بعد تقليده في كل شيء على التجربة قبل الزواج . سينمو الطلاق ، وتزدحم المدن بضحايا الزيجات المحطمة . ثم يصـاغ نظام الزواج بأسره في صور جديدة أكثر سماحة . وعندما يتم تصنيع المرأة ، أو تحل نظم الدولة الخاصة بتربية الأطفـــال محل عناية البيت .. وهذا كل شيء !) (ص ٢٣٥ - ٢٣٦) .

والآن نسمع شهادة الأستاذ أبي الأعلى المودودي في بعض جوانب هـذه الحضارة وما أنشأته من آثار تنطوي على تهديـــد مدمر للحياة الإنسانية ذاتها فضـلاً على خصائص الانسانية .

من كتاب (الحجاب) :

(إن أساطين الفلسفة والأدب ، وأقطاب العلوم الطبيعية الذي رفعوا لواء الإصلاح في القرن الثامن عشر ، كانوا – كما سبق لنا الإشارة إليه – يجابهون نظاماً للتمدن فيـه أنواع من القيود والسدود ، وفيه صلابة من غـير مرونه ، وعسر من غير يسر ، طافحاً بالتقاليد التي لا يقبلها الطبع والضوابط الجـامدة ، والطرق المناقضة للفطرة والعقل . وزاد طينه بلة انحطاط القوم المتواصل على طول القرون فجعله عقبة كأداء في كل طريق للرقي . فبجانب كانت النهضة العلمية والعقلية الجديدة تبعث في نفوس الطبقة المتوسطة أشد الميل إلى التقدم والنبوغ بالعمل والاجتهاد الذاتي . وبجانب آخر كانت على رؤوسهم طبقة الأمراء والزعماء الدينيين تبالغ في شدهم بالأغلال التقليدية . فمـــن الكنيسة إلى الجندية والقضاء ، ومن قصور الإمارة إلى المزارع ودور التجـارة .. كل شعبة من شعب الحياة وكل مؤسسة للتنظيمات الاجتماعيـة كانت تجري من نظام يتيـح لبعض الطبقات المخصوصة بحجة امتيازاتها القديمة وحقوقهـا المتوارثة أن تعسف وتجور على من لا ينتمي

إليها من العاملين الناهضين ، فتذهب بثمار أعمالهم ، وتستأثر بنتاج مواهبهم وكفاءاتهم . فكل محاولة يقوم بها القائمون لإصلاح تلك الحال كانت تخيب وتفشل بإزاء أثرة الطبقات المسيطرة وجهالتها) ..

لهذه الأسباب كلها غدت الطبقات الناشدة للإصلاح تثور في نفوسهم مع الأيام ثائرة الانقلاب الجامحة حتى غلبت عليهم وعمتهم آخر الأمر نزعات البغي والثورة على هذا النظام الاجتماعي بجميع شعبه وأجزائه .. وراج بين الناس نظرية متطرفة في الحرية الشخصية ، ترمي إلى إعطاء الفرد الحرية التامة ، والإباحية المطلقة بإزاء المجتمع ،فأصبحوا ينادون بأنه يجب أن يكون للفرد الحق المطلق في عمل ما يشاء ، والحرية الكاملة في ترك ما يشاء ، وليس للمجتمع أن ينتزع منه الحرية الشخصية .. الخ) (ص ٦٠–٦١).

(من غرائب الاتفاق أنه قد واتت هذا الانقلاب الفكري – وهو في صدر شبابه – أسباب تمدنية أخرى . ففي هذا العصر قامت الثورة الصناعية الشهيرة ، وأعقبتها تغيرات هامة في الحياة الاقتصادية كان من آثارها المترتبة على الحياة التمدنية ما هو عون على تحويل وجهة سير الاجتماع الحديث الى حيث تريد الآداب الانقلابية أن تحولها. وذلك أن تصور الحرية الشخصية الذي نشأ عليه النظام الرأسمالي جاءت الاختراعات الميكانيكية وإمكانات وفرة الإنتاج الصناعي تحكمه وتقويه . فأقامت الطبقات الرأسمالية مؤسسات صناعية وتجارية كبرى وتحولت المراكز الجديدة للصناعة والتجارة إلى مدن عامرة وأصبح ينجر إليها من القرى والأرياف أضعاف الملايين من النفوس . وغلت تكاليف الحياة غلاء فاحشاً وارتفعت أسعار الحاجيات للحياة من المطعم والملبس والمسكن إلى ما فوق طاقة العامة زد على ذلك أن أضيف إلى حاجات الحياة ما لا يحصى من وسائل المعيشة المتجددة لأسباب راجع بعضها الى ارتقاء التمدن وبعضها الى مساعي أهل الثروة .

ولكن النظام الرأسمالي لم يوزع الثروة بين الناس بما يكفل للجميع وسائل الحصول على تلك المتع واللذات وأدوات الزينة والزخرفة التي أدخلها في لوازم الحياة بل هو لم يهيىء للعامة من وسائل المعاش ما يسدون به عوزهم بسهولة من حاجات الحياة الحقيقية – وهي السكنى والطعام واللباس – في تلك المدن التي قد زج بهم إليها ..

(كان من نتائج ذلك كله أن أصبحت المرأة كلا على زوجها ، وأصبح الولد عبئاً على أبيه ، وتعذر على كل فرد أن يقيم أود نفسه فضلاً عن أن يعول غيره من المتعلقين به .

وقضت الأحوال الاقتصادية أن يكون كل واحـــد من أفراد المجتمـع عاملاً مكتسباً . فاضطرت جميع طبقات النساء – من الأبكار والأيامى والثيبات – أن يخرجن من بيوتهن لكسب الرزق رويداً .

(ولما كثر بذلك اختلاط الصنفين ، واحتكاك الذكور والإناث ، وأخـــذت تظهر عواقبه الطبيعية في المجتمع ، تقدم هذا التصور للحرية الشخصية ، وهذه الفلسفة الجديدة للأخلاق ، فهدّأ من قلـــق الآباء والبنات والاخوة والأخوات ، والبعولة والزوجات ، وجعلا نفوسهم المضطربة تطمئن الى أن الذي هو واقع أمام أعينهم لا بأس به فلا يوجسوا منه خيفة إذ ليس هبوطاً وتردياً ، بل هو نهضة وارتقاء، وليس فساداً خلقياً بل هو عين اللذة والمتعة التي يجب أن يقتنيها المرء في حياته ، وأن هذه الهاوية التي يدفع بهم إليهـــا الرأسمالي ليست بهاوية النار ، بل هي جنة تجري من تحتها الأنهار .

(وما وقف الأمر عند هذا الحد بل جاء النظام الرأسمالي الذي رفعت قواعـده على هذا التصور للحرية الشخصية فمنح الفرد حقاً مطلقاً من كل قيد أو شرط في اكتساب الثروة بكل ما أمكنه من الطرق وتبعته فلسفة الأخلاق . فأباحت له كل وسيلة يمكن أن تتخذ لجمع الأموال، وإن كان إثراء الفرد الواحد بتلك الوسائل والطرق مهلكة أفراد كثيرين . . وبذلك تألف نظام التمدن من أوله الى آخره على صورة تؤثر الفرد على الجماعة من كل وجهة وليس فيها ضمان للمحافظة على مصالح الجماعة بإزاء أثَـرة الفرد فانفتحت السبل على إخوان الطمع والأثرة ليغيروا ويعتدوا على المجتمع كيف يشاءون فعمد هؤلاء الى الغرائز الإنسانية يتحسسون فيها مواطن الضعف والخلل وراحوا يتفننون في استغلالها لأغراضهم . فقـــام واحدهم وروّج في الناس سيئة الخمر جلباً للثروة الى جيبه ولم ينهض منهم من ينقذ المجتمع من غوائل هذا الطاعون . وقام آخر وابتلى خلق الله بآفة الربا ، ونصب شبكته في القاصية والدانية وما هنالك من يدفع عن دماء الناس ضر هـــذا العلق بل حافظت القوانين على مصلحة هذه الدويبة الفتاكة كي لا يسلم منها أحد بقطرة من دمه وجـاء ثالث وأشاع في المجتمع طرقاً مبتكرة للقمار حتى لم تسلم شعبة من شعب التجارة من عنصره وما ثمّة من يتقدم لحفظ الحياة الاقتصادية من هذه الحمى المحرقة .

(وما كان من الممكن في هذا العصر من الأنانية والبغي والعدوان الفردي أن يعزب عن إخوان الأثرة والطمع ذلك الضعف الإنساني الأكبر . . الشهوة الجامحة . . التي يمكنهم

باستثارتها جلب كثير من المنافع. فلم يفتهم ذلك فعلاً بل استخدموا غريزة الشهوة العارمة في الإنسان ما وسعهم وما أمكنهم . إذ أصبح مـــدار العمل والعنـاية كله في المراقص والمسارح ومراكز إخراج الأفلام على أن تستخدم لها الغيد الحسان ، ويعرضن على المنصة في صورة أكمل من التبرج ، وفي هيئة أقرب الى العري ويجلب الذهب من جيوب الرجال بأكثر ما يمكن من إضرام نار الشهوة فيهم .. جـاء قوم فمهدوا الأسباب لإكراه النساء وتقدموا بحرفة البغاء الى أن أصبحت تجارة دولية منظمة .. وجـاء آخرون فتفننوا في صنع أدوات الزينة والزخرفة . ثم عمموها في المجتمع ليزيدوا من غريزة التبرج التي جبلت عليها المرأة الى أن يجعلوها فيهن هوساً ، ويجمعوا بذلك الذهب والفضة مـلء أكفهم .. جاء فئة أخرى فاخترعوا لملابس النساء أزياء كاشفة مغرية واستخدموا كل فاتنة الجمـال لتلبسها وتغشى بها النوادي والحفلات حتى يقبل عليها الشباب ويفتنوا بها فتغرم الفتيات بتلك الأزياء الجديدة من اللباس وتربح تجارة مخترعيها . وتذرع آخرون بإشاعة الصور العارية والقصص الغرامية والمقالات الخليعة الى استدرار الأموال وأخذوا كذلك يملأون جيوبهم بإصابة العامة بالجذام الخلقي حتى انتهت الحال على مضي الأيام الى أن لم تبق ناحية من نواحي التجارة خالصة من عنصر الإغراء . وها أنت ذا صرت لا ترى في زمانك هذا إعلاناً من الإعلانات التجارية في الجرائد والمجلات إلا وسمته الملازمة البارزة صورة امرأة عارية أو في حكم العارية ، كأنه لم يعد من الممكن أن يكون إعلان ما وافياً بالغرض بدون وجود المرأة ، ولا تجد كذلك فندقـاً من الفنادق ولا مقهى ولا صالة عرض إلا وقـــد استخدمت فيها المرأة لتعمل عملها المغناطيسي في الرجال .

(وكان المجتمع المسكين المخذول لا يملك - حيال ذلك كله - إلا وسيلة واحدة للمحافظة على مصالحه وهي أن يستعين بتصوراته الخلقية على دفع تلك الغارات عن نفسه لكنما كان من ورائه فلسفة كاملة الأداء وعسكر شيطاني عرمرم من العلوم والآداب ، كانا لا يزالان يعملان عملهما في نسخ النظريات الخلقية ومحوها من النفوس .

(ومن براعة القاتل - والله - أن يحمل قتيله على الاستسلام للقتل بطيب خاطره ورضاه) (ص ٨٢-٨٧) .

.. (هذه حال المرأة عندهم .. وأما الرجال فما تزيدهم كل هذه المظاهر الخلابـة من

الجمال النسوي إلا شوقاً وطموحاً ونهمة . لأن نار الشهوة والعاطفة البهيمية المتأججة في الصدور لا تخمد بكل منظر جديد من الخلاعة والسفور ، بل تزداد لهيباً، وتتطلب منظراً آخر أكثر منه سفوراً وحسوراً وتكشفاً . ومثلهم في ذلك كمثل من تصيبه لفحة من السموم فيكاد لا يسكن ظمؤه . كلما ازداد عطشاً وظمأ . فهم دائماً في إعداد أدوات ، وتهيئة أسباب وظروف لإطفاء أوار شهوتهم المبرح بهم ، ولا يهدأ لهم دون ذلك بال، ولا هم يستقر لهم قرار . ما هذه الصور العارية ، وهذا الأدب المكشوف وهذه القصص الغرامية، وهذه المراقص والمباذل والمسرحيات المشحونة بالانفعالات والنزعات العارمة.. ما هذه كلها إلا نماذج من جهودهم وحيلهم التي يتعاطونها لإخماد الشهوات الجامحة – ولكن في الحقيقة لاستثارتها والنفخ فيها – التي أججها هذا المجتمع الماجن، وتلك الحياة الاجتماعية الضالة في صدر كل فرد من أفرادهم . . ولكنهم سموها بالفن لإخفاء هذا الضعف الكامن في نفوسهم وفي حياتهم .

(ولا يزال هذا الداء الوبيل – من غلبة الشهوات البهيمية – ينخر في كيان الأمم الغربية ويتنقص من قوة حياتها بسرعة هائلة . والتاريخ يشهد أنه ما سرى هذا الداء في مفاصل أمة إلا أوردها موارد التلف والفناء . ذلك بأنه يقتل في الإنسان كل ما آتاه الله من القوى العقلية والجسدية لبقائه وتقدمه في هذه الحياة . وأنّى للناس – لعمر الله – ذلك الهدوء وتلك الدعة والسكينة ، التي لا بد لهم منها لمعالجة أعمال الإنشاء والتعمير ما دامت تحيط بهم محركات شهوانية من كل جانب، وتكون عواطفهم عرضة أبداً لكل فن جديد من الإغراء والتهييج ، ويحيق بهم وسط شديد الاستثارة ، قوي التحريض ، ويكون الدم في عروقهم في غليان مستمر بتأثير ما حولها من الأدب الخليع ، والصور العارية ، والأغاني الماجنة ، والأفلام الغرامية ، والرقص المثير ، والمناظر الجذابة من الجمال الأنثوي العريان ، وفرص الاختلاط بالصنف المخالف . أستغفر الله – بل أنّى لهم ولأجيالهم الناشئة – أن يجدوا في غمرة هذه المهيجات الجو الهادىء المعتدل الذي لا مندوحة عنه لتنشئة قواهم الفكرية والعقلية وهم لا يكادون يبلغون الحلم حتى يغتالهم غول الشهوات البهيمية ويستحوذ عليهم . وإذا هم وقعوا بين ذراعي هذا الغول فأنى لهم النجاة منه ومن غوائله وعواديه !) (ص ٣٧ – ٣٩) .

(كان أكثر الأمم تأثراً بحركة منع التناسل هي فرنسا فكانت نسبة المواليد فيها إلى

الانخفاض منذ أربعين سنة على التوالي (عند نشوب الحرب العالمية الأولى) ولم تكن إلا عشرون مقاطعة من مقاطعات فرنسا السبع والثمانين تربو فيها نسبة المواليد على نسبة الوفيات. وأما المقاطعات السبع والستون الباقية فكانت نسبة الوفيات فيها أكثر من نسبة المواليد . وكان معدل الوفيات في بعض مقاطعاتها يتراوح بين ١٣٠ ، ١٧٠ بإزاء كل مئة مولود . فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ودفعت الأمة الفرنسية إلى موقف حرج بين الموت والحياة أدرك أرباب فكرها بغتة أن هذه الأمة البائسة تفتقر إلى شباب مقاتلين ، ورجال محاربين ، وإنه إن ضحى – على الفرض – بذلك العدد القليل من شباب الأمة وفتيانها في سبيل الدفاع عن الوطن في تلك الآونة ، فإنه لن تمكن النجاة من كرة العدو الثانية . فكان من انبعاث هذا الشعور في نفوس الفرنسيين أن تملكت مشاعرهم فكرة الاستزادة من النسل حتى خبلتهم وجعل الكتّاب والصحفيون والخطباء – وحتى أهل الجد من رجال الدين والسياسة – كلهم يهيبون بالناس من كل جانب وبصوت واحد : أن يكثروا من التوليد والتناسل ، ولا يبالوا القيود التقليدية من النكاح والزواج ونادوا أن العذراء التي تتبرع برحمها للتوليد خدمة للوطن، تستحق العز والكرامة لا التعب والملامة ! وكان هذا العصر المضطرب بطبيعة الحال حافزاً قوياً لدعاة الحرية والإباحية فانتهزوا الفرصة السانحة وبثوا جميع ما كان قد بقي في جعبة فكرهم الشيطاني من النظريات) .. (ص ٧٢-٧٣) .

(إن أول ما قد جر على الفرنسيين تمكن الشهوات منهم اضمحلال قواهم الجسدية وتدرجها إلى الضعف يوماً فيوماً . فإن الهياج الدائم قد أوهن أعصابهم وتعبد الشهوات يكاد يأتي على قوة صبرهم وجلدهم وطغيان الأمراض السرية قد أجحف بصحتهم. فمن أوائل القرن العشرين لا يزال حكام الجيش الفرنسي يخفضون من مستوى القوة والصحة البدنية المطلوب في المتطوعة للجند الفرنسي على فترة كل بضع سنين لأن عدد الشبان الوافين بالمستوى السابق من القوة والصحة لا يزال يقل ويندر في الأمة على مسير الأيام . وهذا مقياس أمين يدلنا ـ كدلالة مقياس الحرارة في الصحة والتدقيق ـ على كيفية اضمحلال القوى الجسدية في الأمة الفرنسية) (ص ١١٣) .

(والنكبة الثانية العظيمة التي قد جرها على التمدن الفرنسي طغيان الشهوة المطلقة ورواج الإباحية وقبولها : هي خراب النظام العائلي وتقوض بنيانه ..) (ص ١١٤)

(والأمة الفرنسية – كما أسلفت – لا تزال تهبط فيهـــا نسبة المواليد منذ ستين عاماً متوالية . ففي بعض السنين تزيد نسبة الوفيات على نسبة المواليد ، وفي الأخرى تتساويان وفي الثالثة لا تزيد على نسبة الوفيات إلا بقليل جداً . وبجانب آخر لا يزال عدد الجالية المهاجرين في فرنسا ينمو ويكثر فكانو قرابة ثلاثة ملايين من بين اثنين وأربعين مليوناً من سكان فرنسا الأصليين سنة ١٩٣١ . وإن استمرت الحال على مـــا هي عليه الآن ، فلا يستبعد أن تعود الأمـــة الفرنسية عند ختام القرن العشرين أقليـة في وطنها هي) .. (ص ١٣٢)

(ولا يحسبن أحد أن الأمة الفرنسية تنفرد بذلك كله وتشذ عن غيرها في هذا الباب. بل الأمر أن جميع الأمم التي قد آمنت بما ذكر آنفاً من نظريات الأخلاق ومبادىء الاجتماع المتطرفة تماثلها وتجاريها في تلك الحال) .. (ص١٢٣)

(نشر في جريدة فري برس بدوترويت الأمريكية مقال جاء فيه :

(إن مـا قد نشأ بيننا الآن من قلة الزواج وكثرة الطلاق وتفاحش العلاقات غـــير المشروعة – الدائمة والعارضة – بين الرجال والنساء يدل كله على أننـا راجعون القهقرى إلى البهيمية . فالرغبة الطبيعية في النسل إلى التلاشي ، والجيل المولود حبله على غاربه ، والشعور بكون تعمير الأسرة والبيت لازماً لبقاء المدنية والحكم المستقل ، يكاد ينتفي من النفوس . وبخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الإغفال لمآل المدنية والحكومـة وعدم النصح لها).. (ص١٣٧)

(كل هذا الاتباع لأهواء النفس والنفور من تبعات الزوجية والتبرم بالحيـــاة العائلية والارتخاء في الروابط الزوجية، يكاد يذهب في المرأة عاطفة الأمومة الفطرية التي هي أشرف العواطف الروحية وأسماها في النساء والتي لا يقف عليها بقاء الحضارة والتمدن فحسب ، بل بقاء الإنسانية جمعاء وما نجمت سيئات منع الحمل ، وإسقاط الجنين ، وقتل الأولاد ، إلا بنضوب هذه العاطفة في نفس المرأة فالمعلومات عن تدابير منع الحمـل موفورة لكل فتى وفتاة في الولايات المتحدة الامريكية على الرغم من قيود القانون . والآلات والعقاقير المانعة للحمل معروضة للبيع في الحوانيت كالسلعة المباحة تستصحبها دائماً بنات المدارس والكليات – بله عامة النساء – لكي لا تفوت إحداهن لذات عشية من عشيات الشباب ،

إن نسي خدينها أن يأخذ أدواته معه . فيكتب القاضي (لندسي) (في محكمة دنفر) : (٤٩٥ بنتاً في السن الباكرة من بنات المعاهد الثانوية اعترفن لي بأنهن قد جربن العلاقة الجنسية مع الصبيان إلا أنه لم تحمل منهن إلا خمس وعشرون . وأما الباقيات فسلم بعضهم من الحمل بمحض الاتفاق . ولكن كانت لأكثرهم خبرة كافية بتدابير منع الحمل . وهذه الخبرة قد عمّت فيهن إلى حد لا يكاد الناس يصيبون في تقديره) (ص ١٣٩)

(وقد ذكرت مجلة أمريكية هذه الأسباب التي تزال تؤدي إلى رواج الفحشاء وقبولها هناك بالكلمات الآتية :

(عوامل شيطانية ثلاثة يحيط ثالوثها بدنيانا اليوم . وهي جميعها في تسعير سعير لأهل الأرض: أولها الأدب الفاحش الخليع الذي لا يفتأ يزداد في وقاحته ورواجه بعد الحرب العالمية (الأولى) بسرعة عجيبة .. والثاني الأفلام السينمائية التي لا تذكي في الناس عواطف الحب الشهواني فحسب ، بل تلقنهم دروساً عملية في بابه .. والثالث انحطاط المستوى الخلقي في عامة النساء الذي يظهر في ملابسهن بل في عريهن وفي إكثارهن من التدخين واختلاطهن بالرجال بلا قيد ولا التزام .. **هذه المفاسد الثلاثة فينا الى الزيادة والانتشار بتوالي الأيام . ولا بد ان يكون مآلها زوال الحضارة والاجتماع النصرانيين وفناءهما آخر الامر . فان نحن لم نحد من طغيانها فلا جرم ان ياتي تاريخنا مشابهاً لتاريخ الرومان ومن تبعهم من سائر الأمم الذين قد أوردهم هذا الاتباع للشهوات والأهواء موارد التهلكة والفناء مع ما كانوا فيه من خمور ونساء ومشاغل ورقص وغناء) ..**
(ص ١٢٩) .

(والآن نستمع إلى شهادة الطبيبة التي تحدثت عنها الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) بعنوان (جنس ثالث في طريقه إلى الظهور) من مشاهداتها في (فينا) :

(.. شاءت الظروف أن أذهب في عطلة الأحد لزيارة صديقة لي طبيبة بإحدى ضواحي (فينا) – بعد أسبوع مرهق قضيناه بين أوراق البردى العربية في دار الكتب وكنت أحسب أن يوم الأحد هو أنسب وقت لمثل تلك الزيارة . فما كان أشد عجبي حين فتحت لي صديقي باب بيتها معجلة وفي يدها (بطاطس) تقشره . ثم قادتني في لطف إلى مطبخها لنأخذ مجلسنا هناك .

(ولم يغب عنها ما شعرت به من دهشة . فابتدرتني قائلة :

(ما كنت تتوقعين هذا المنظر : طبيبة في المطبخ يوم الأحد !

(قلت ضاحكة :

(أما العمل يوم الاحد فربما فهمته . وأما اشتغالك بالطبخ مع ما أعرفه من إرهـاق مهنتك فهذا ما لم أنتظره .

(فردت :

(لو عكست لكنت أقرب إلى الصواب . فالعمـل في عطلة الاحد هو المستغرب عندنا . لولا أنه فرصتي الوحيدة لكي أقف هنا حيث ترين . وأما اشتغالي بالمطبخ فلعلي لم أتجاوز به نطاق مهنتي . إذ هو من نوع العلاج لحـالة قلق أعانيها وتعانيهـا معي سيدات أخريات من المشتغلات بالأعمال العامة .

(ولما سألتها عن سر هذا القلق - مـع استقرار الوضع الاجتماعي للمرأة الغربية - أجابت بأن ذلك القلق ، لا صلة له بمتاعب الانتقال المفروضة على جيـل الطليعة من نساء الشرق ! وإنما هو صدى شعور ببدء تطور جديد يتوقع حدوثه علماء الاجتماع والفسيولوجيا والبيولوجيا في المرأة العاملة . وذلك لما لحظوا من تغير بطيء في كيانها لم يثر الانتباه أول الأمر لولا ما سجلته الإحصاءات من اطراد النقص في المواليد بين العاملات . وكان المظنون أن هذا النقص اختياري محض وذلك لحرص المرأة العاملة على التخفف من أعباء الحمـل والوضع والإرضاع تحت ضغط الحاجـة والاستقرار في العمل . ولكن ظهر من استقراء الاحصاءات إن نقص المواليد للزوجات العاملات ، لم يكن أكثره عن اختيار بل عن عقم استعصى علاجه . وبفحص نماذج شتى منوعة من حالات العقم اتضح أنه في الغالب لا يرجع إلى عيب عضوي ظاهر . مما دعـا العلماء إلى افتراض تغير طارىء على كيان الأنثى العاملة نتيجة لانصرافها المادي والذهني والعصبي - عن قصد أو غير قصد - عن مشاغل الأمومة ودنيا حواء وتشبثها بمساواة الرجل ومشاركته في ميدان عمله .

(واستند علمـاء الأحياء في هذا الفرض - نظرياً - إلى قانون طبيعي معروف وهو أن (الوظيفة تخلق العضو) ومعناهـا فيما نحن فيه أن وظيفة الأمومة هي التي خلقت في حواء خصائص مميزة للأنوثة لا بد أن تضمر تدريجياً بانصراف المرأة عن وظيفة الأمومة

واندماجها فيما نسميه (عالم الرجل) .

(ثم تابع العلمــاء هذا الفرض فإذا التجارب تؤيده إلى أبعد مما كان منتظراً وإذا بهم يعلنون – في اطمئنان مقرون بشيء من التحفظ – عن قرب ظهور (جنس ثالث) تضمر فيه خصائص الأنوثة التي رسختها الممارسة الطويلة لوظيفة حواء .

(وثارت اعتراضات .. منها : أن كثرة العاملات ينفرون من العقم ويشتهين الولد . ومنها : أن المجتمع الحديث يعترف بالعاملة الأم ويحمي حقها في العمــل ويتيح لهـــا بحكم القانون فرصة الجمع بين شواغل الأمومة وواجبات العمل . ومنها : أن عهد المرأة بالخروج من دنياها الخاصة لا يتعدى بضعة أجيال على حين يبلــغ عمر خصائص الأنوثة فيها مـــا لا يحصى من دهور وأحقاب .

(وكان الرد على هـــذه الاعتراضات : أن اشتهاء الزوجة العاملة للولد يخالطه دائمـاً الخوف من أعبائه والإشفاق من أثر هذه الأعباء على طمأنينة مكانها في محل العمل . ثم إن الاعتراف بالعاملة الأم قلما يتم إلا في حدود ضيقة وتحت ضغط القانون . وما أكثر ما يجد أصحاب العمل فرصتهم لتفضيل غير الأمهات . وأما قصر عهد المرأة بالخروج فيرد عليه بأن هذا الخروج – على قرب العهد به – قد صحبه تنبه حاد إلى المساواة بالرجل، وإصرار عنيد على التشبه به ، مما عجل ببوادر التغيير لعمق تأثير فكرة المساواة على أعصاب المرأة وقوة رسوخها في ضميرها .

وما يزال المهتمون بهـــذا الموضوع ، يرصدون التغيرات الطارئة على كيـان الأنثى ويستقرئون في اهتمام بالـغ دلالات الأرقام الإحصائية لحالات العقم بـــين العاملات ، والعجز عن الإرضـــاع لنضوب اللبن وضمور الأعضاء المخصصة لوظيفة الأمومة) ... (جريدة الاهرام) .

ومن مقال إخباري في أخبار اليوم (من استوكهلم) لموسى صبري :

(قال لي أستاذ جامعي سويدي :

(إننا نعلّم أبناءنا وبناتنا في المدارس الثانوية وفي سن مبكرة ، كل شيء عن الجنس واضحاً صريحاً . ليست لدينا مشكلة جنس. إن المتعة الجنسية كمتعة الطعام اللذيذ، ومتعة الملابس الأنيقة ، والعلاقات الجنسية بين الرجال والنساء قبـــل الزواج هي شيء طبيعي عادي . وما يباح للشاب يجب أن يباح للفتاة .

... (وخلاصة القول أن (حرية الحب) في السويد تعني أن نداء الجنس هو نداء طبيعي ، كنداء البطن ، ونداء العقل .. ليس فيه ما يدعو إلى كبته أو شدة كتمانه .. ولقد تطور بهم مجتمعهم إلى هذه النظرة المجردة إلى الجنس بين الرجل والمرأة – وقد فوجئت وأنا أتروض في حدائق (سكانسن) ذات صباح مشمس بوجود بركة مياه لاستحمام الصبية والبنات . ورأيت الأولاد والبنات يستحمون في الماء عرايا كما ولدتهم أمهاتهم وهم ما بين سن الثامنة والحادية عشرة .. وتبددت المفاجأة تماماً عندما عرفت أن الكبار أيضاً من النساء والرجال ينزلون إلى البحر ويمرحون على الشاطىء وهم عرايا تماماً .. ليس هذا هو أسلوبهم في التصييف فهناك من يرتدي المايوه . ولكن نزول (شلة) من الجنسين إلى البحر – وهم عرايا – أمر لا يلفت النظر ولا يدير أي رأس !

والسؤال : وماذا تفعل الفتاة إذا أصبحت أماً بغير زواج ؟

(والجواب : إذا تخلصت من جنينها كان بها . وإذا لم تتخلص فإن الدولة كفيلة برعاية الطفل وحضانته وتعليمه بالمجان حتى سن السادسة عشرة .. وهو يقيد في سجل المواليد باسم أمه . أو باسم الأب – إذا اعترف به . والمجتمع لا يعطي الابن غير الشرعي أو الأمهات غير المتزوجات إلا كل تقدير واحترام ؟

وهنا نتساءل – في جد وخطورة :

إذا كانت السويد تعتبر كدولة من أرقى دول العالم ، فهل نستطيع أن نتصور أننا – وباقي الدول – سننجرف إلى هذا المصير إن عاجلاً أو آجلاً ؟

(وتأكيد تقدم السويد – كأرقى دول العالم – أمر تؤيده الإحصاءات وتعترف به كل الأبحاث العلمية .

(إن ما يخص الفرد الواحد في السويد من الدخل القومي يساوي ٥٢١ جنيهاً مصرياً في العام . أي حوالي ٤٣ جنيهاً في الشهر الواحد .

(ووصل نظام الحكم الاشتراكي في السويد إلى ما يقارب محو الفروق تماماً بين الطبقات بفرض الضرائب التصاعدية وإيجاد مختلف أنواع التأمينات الصحية والاجتماعية التي لا تجدها في دول أخرى .

(كل مواطن يستحق نصيبه من التأمين الصحي وإعانات المرض التي تصرف نقداً والعلاج المجاني في المستشفيات .

(تدفع إعانة أمومة لكل النساء . تشمل هذه الإعانـــة مصاريف الولادة والرعاية الطبية في المستشفى وإعانة إضافية لكل مولود .

(التأمين ضد إصابات العمل إجباري .

(شروط الإعانات في حالة البطالة هي أسخى شروط معروفة دولياً .

(تقدم الدولة مساعدات اجتماعية للطفولة أقرب إلى الخيال. منها إعانة مالية قدرها ٤٠ جنيهاً في العام للطفل حتى يبلغ ١٦ سنة . رعـــاية صحية مجانية . مصاريف انتقال مجانية للإجازات يتمتع بها الطفل حتى سن ١٤ سنة . مدارس برسوم تافهة لرعاية الأطفال دون سن المدرسة طول اليوم .

(التعليم في جميع مراحله بالمجان ، مع تقديم إعانات ملابس ، وإعانات معيشية لغير القادرين وتقدم للطلبة قروض دراسية تصل إلى ٢٥٠ جنيهاً للطلبة المجتهدين .

(تقدم الدولة قروضاً لتأثيث منازل العرسان تصــل إلى ٣٠٠ جنيه بفائدة بسيطة تسدد على خمس سنوات .

(إن ثلث الضرائب التي يدفعها الشعب السويدي تنفقها الدولة في التأمينات الاجتماعية ، وتدفع الدولة ٨٠ ٪ منها في مساعدات نقدية . إن أضخم ميزانية هي ميزانيـــة وزارة الشئون الاجتماعية التي وصلت هذا العام إلى ٣٣٤ مليون جنيه . ثم تليها ميزانيـة وزارة التربية وقد بلغت ١٣٣ مليون جنيه . بينما تنزل ميزانية القصر الملكي إلى حوالي ٤٠٠ ألف جنيه فقط .

(مع وجود كل هذه المشجعات على الاستقرار في الحياة وتكوين أسرة فان الخط البياني لعدد سكان السويد يميل الى الانقراض.. مع وجود الدولة التي تكفل للفتاة إعانة زواج ثم تكفل لطفلها الحياة حتى يتخرج في الجامعة.. فان الأسرة السويدية في الطريق الى عدم انجاب أطفال على الاطلاق ..

(يقابل هذا :

(انخفاض مستمر في نسبة المتزوجين إلى غير المتزوجين ..

(وارتفاع مستمر في نسبة عدد المواليد غير الشرعيين ..

(مع ملاحظة أن ٢٠ ٪ من البالغين الأولاد والبنات لا يتزوجون أبداً .

(لقد بدأ عهد التصنيـــع وبدأ معه المجتمع الاشتراكي في السويد عام ١٨٧٠ . كانت

نسبة الأمهات غير المتزوجات في ذلك العام ٧ ٪ وارتفعت هذه النسبة في عام ١٩٢٠ إلى ١٦ ٪ والإحصاءات بعد ذلك لم أعثر عليها ولكنها ولا شك مستمرة في الزيادة .

« **ان نسبة الطلاق في السويد هي أكبر نسبة في العالم كله** . إن طلاقاً واحداً يحدث بين كل ست أو سبع زيجات – طبقاً للاحصاءات التي أعدتها وزارة الشؤون الاجتماعية بالسويد . والنسبة بدأت صغيرة وهي مستمرة في الزيادة .. في عام ١٩٢٥ كان يحدث ٢٦ طلاقاً بين كل ١٠٠ ألف من السكان . ارتفع هذا الرقم الى ١٠٤ في عام ١٩٥٢ . ثم ارتفع الى ١١٤ في عام ١٩٥٤ .

(سبب ذلك أن ٣٠ ٪ من الزيجات تتم اضطراراً تحت ضغط الظروف بعد أن تحمل الفتاة ، والزواج بحكم (الضرورة) لا يدوم بطبيعة الحال. ويشجع على الطلاق أن القانون في السويد لا يضع أية عقبة، أما الطلاق إذا قرر الزوجان أنهما يريدان الطلاق فالأمر سهل جداً . وإذا طلب أحدهما الطلاق فإن أي سبب بسيط يقدمه يمكن أن يتم به الطلاق.

(واذا كانت (حرية الحب) مكفولة في السويد .. فهناك حرية أخرى يتمتع بها غالبية أهل السويد .. انها (حرية عدم الايمان بالله) ! لقد انتشرت في السويد الحركات التحررية من سلطان الكنيسة على الإطلاق وهذه الظاهرة تسود النرويج والدنمرك أيضاً . فالمدرسون في المدارس والمعاهد يدافعون عن هذه الحرية ويبثونها في عقول النشء والشباب .. **ان الكنائس موجودة في كل مكان ولكنها اقرب الى التحف الأثرية. والدولة تصرف على الكنائس وتدفع مرتبات القسس. ولكن الكنيسة لا تفتح ابوابها الا صباح الأحد لبضع ساعات ولا يؤمها الا عدد محدود جداً من العجائز أمثال جدتي وجدتك والنكتة التي تسمعها منهم : أنهم حددوا ساعات العمل للكنيسة بثلاث ساعات في الاسبوع. وأنها من حقها بعد ذلك ان تأخذ اجازة .. لم يعودوا يؤمنون بأن الدين هو وسيلة الى اشباع حاجات النوع الانساني !**

(وهذه ظاهرة جديدة تهدد الجيل الجديد في السويد وباقي دول اسكندنافيا . ان افتقادهم للايمان يجرفهم الى الانحراف والى الادمان على المخدرات والخمور .

... (وقد قدر عدد أطفال العائلات التي لها أب مدمن بحوالي ١٧٥ ألفاً . أي ما يوازي ١٠٪ من مجموع أطفال العائلات كلها.. وإقبال المراهقين على إدمان الخمر يتضاعف.. إن من قبض عليهم البوليس السويدي في حالة سكر شديد من المراهقين بين سن ١٥ ، ١٧

يوازي ثلاثة أمثال المقبوض عليهم بنفس السبب منذ ١٥ عامـاً ! وعادة الشراب بـين المراهقين والمراهقات تسير من سيء إلى أسوأ ... ويتبع ذلك حقيقة رهيبة .

إن عشر الذين يصلون إلى سن البلوغ في السويد يتعرضون لاضطرابات عقليـة تلازم أمراضهم الجسدية. ولا شك أن التمادي في التمتع بحرية عدم الإيمان سيضاعف هذه الانحرافات النفسية . ويزيد من دواعي تفكك الأسرة ويقربهم إلى هوة انقراض النسل ..

(قال لي صحفي نرويجي :

(إن مستقبل شباب اسكندنافيا يتجه إلى الهاوية بلا إيمان ..

(قلت له :

(وماذا تفعل حكومتكم لدرء هذا الخطر ؟

(أجاب متألماً :

(إن حكومتنا أيضاً ليست مؤمنة) .. (أخبار اليوم)

●

وبدون أي تعليق أو تعقيب نغلق هذا الفصل على النُذُر الرهيبة . فهي ناطقة بذاتها . إن الذين يخالفون قانون الفطرة ، لا يمكن أن يمضوا بلا عقـاب .. وهو عقاب رهيب ولو تفتحت عليهم أبواب كل شيء من خيرات الأرض ورخاء العيش ومضاعفة الدخـل ، والضمانات المادية الخيالية . فللحياة الإنسانية قوانينها الفطرية الصارمة التي لا تجامل ولا تتخلف ، ولا تلين ..

هذه القوانين هي التي يقول عنها الدكتور ألكسيس كاريل :

(إنهم لم يدركوا أن أجسامهم وشعورهم تتعرض للقوانين الطبيعية ، وهي قوانـين أكثر غموضاً – وإن كانت تتساوى في الصلابة – مع القوانين الدنيوية . كذلك لم يدركوا أنهم لا يستطيعون أن يعتدوا على هذه القوانين دون أن يلاقوا جزاءهم) .

ولقد حذر الله – سبحانه – عباده عواقب التعرض للخلاف عن هذه القوانين . وذلك حين يعرضون عن منهج الله وهداه المتمشي مـع سنته في الكون فلا تكون لهم من عواقبها نجاة :

« فلما نسوا ما ذكروا به ، فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بمـــا أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون فقطعنا دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العــالمين » .. (الأنعام ٤٤-٤٥)

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاهـــا أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً ، كأن لم تغنَ بالأمس . كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .. (يونس ٢٤)

وصدق الله العظيم ..

●

ولعل بهذا نوضح موضوع المؤيدات الفطرية التي تجعل الإنسان أمام طريق وحيد عليه أن يسلكه هو طريق الله المتمثل بالإسلام دينه الحق « إن الدين عند الله الاسلام ». الإسلام الذي أنزله الله على محمدٍ عبده ورسوله ﷺ « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبــل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » .

القسم الثاني

المؤيّدات الرّبانيّة

ويقسم الى قسمين :

أ — المؤيدات الربانية في الدنيا

ب — المؤيد الرباني الثاني : الآخرة

٢ ـ المؤيّدات الربانيّة في الدُّنيا

ما ذكرناه في المؤيد السابق من عقوبات الفطرة هو من نوع النتائج المترتبة على مقدماتها، أو من نوع تحقق القضية إذا وجدت أسبابها . أما المقصود بهذا المؤيد هنا فهو العقوبة المترتبة على الذنب بفعل الله قهراً للمذنب والكل في الحقيقة فعل الله ولكن ذلك عقوبة تظهر نتائجها بشكل واضح دون أن يرى للقهر الإلهي تدخل ظاهر فيها . وهذا يرى فيه بشكل ظاهر تدخل القهر الإلهي .

وحتى يتضح هذا المقام نضرب مثالاً :

إن من عقوبات الفطرة على اللواط هي اكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء مما يؤدي إلى الإخلال بعملية التوالد لبقاء النوع .

فأمة كأمة لوط مثلاً عندما أصيبت بهذا الداء واستشرى بها فإنه يعرضها إلى الفناء عملياً إذا مشت بهذا الانحراف إلى منتهاه فهذه عقوبة فطرية على جريمة بعينها ولكن زيادة على ما يترتب على هذه العقوبات الفطرية فإن الله عذب هذه الأمة عذاباً آخر استأصلها به إذ جعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود .

فالذي نعنيه في هذا الباب هو هذا النوع من العقوبات الإلهية التي يعاقب بها المنحرفون عن أمره والمجرمون .

وقد قص الله علينا في القرآن أنواعاً من هذه العقوبات عاقب بها أقواماً أو رجالاً لارتكابهم جرائم الانحراف عن أمره وأمر رسله عليهم الصلاة والسلام ننقلها أولاً ليتضح لنا الأمر ثم نعقب على ذلك ببعض التعليقات وعلى هذا فبحثنا هذا سينقسم إلى قسمين نماذج

أولا : نماذج العقوبات

أ ـ قارون :

« إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم وآتيناه من الكنوز ما إنّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين ، وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . قال إنما أوتيته على علم عندي أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبلِه من القرون من هو أشد منه قوة وأكثرُ جمعاً ولا يُسئل عن ذنوبهم المجرمون ، فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارونُ إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين أوتوا العلم ويلَكُمْ ثوابُ الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقّاها إلا الصابرون ، فخسفنا به وبداره الأرضَ فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون وَيْكأنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أنْ منّ الله علينا لخسف بنا وَيْ كأنه لا يفلح الكافرون » . (القصص الآية ٧٦–٨٢)

ب ـ اصحاب الجنة :

« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليَصْرِمُنّها مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادَوا مصبحين ، أن أغدوا على حرثِكم إن كنتم صارمين ، فانطلقوا وهم يتخافتون ، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وَغدَوا على حَردٍ قادرين ، فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تُسبّحون ، قالو سبحان ربنا إنا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى رُبنا أن يُبدِلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولَعَذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » . (القلم الآية ١٧–٣٣) .

ج – صاحب جنتين :

« واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا ، كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نَهَرا ، وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً ، ودخل جنّتَه وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً ، وما أظن الساعة قائمة ولئن رُدِدْت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً ، قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواكَ رَجُلاً ، لكنّا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً ، ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن تَرَنِ أنا أقَلَّ منك مالاً وولداً، فعسى ربي أن يؤتيَنِ خيراً من جنتك ويرسلَ عليها حسباناً من السماء فتصبحَ صعيداً زلقا ، أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلبا ، وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاويةٌ على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا ، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتَصِرا » . (الكهف الآية ٣٢–٤٣)

د – المعتدون من اليهود على حرمة يوم السبت :

«واسئلهم عن القرية التي كانت حاضرةَ البحر إذ يَعْدون في السبت إذ تأتيهم حيتانُهم يوم سبتهم شُرَّعاً ويوم لا يَسبِتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون، وإذ قالت أمةٌ منهم لِمَ تعظون قوماً الله مهلكُهم أو معذبُهم عذاباً شديداً قالوا معذرةً إلى ربكم ولعلهم يتقون ، فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهَوْن عن السُوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون ، فلما عتوا عن ما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » . (الأعراف الآية ١٦٣–١٦٦)

ه – قوم نوح :

« كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدُجِر ، فدعا ربّه أني مغلوبٌ فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قُدِرْ ، وحملناه على ذات ألواحٍ ودُسُرٍ ، تجري بأعيننا جزاءاً لمن كان كفِر ، ولقد تركناها آيةً فهل من مدّكِر ، فكيف كان عذابي ونذر » . (القمر الآية ٩–١٦)

« ونوحاً إذ نادى من قبل فاستجبنا له فنجيناه وأهلَه من الكرب العظيم ، ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوم سوْءٍ فأغرقناهم أجمعين » . (الأنبياء الآية ٧٦ – ٧٧)

و – عـــاد :

« كذبت عادٌ فكيف كان عذابي ونُذُر ، إنا أرسلنا عليهم ريحـاً صرصرا في يومِ نحسٍ مستمِر ، تنزِع الناسَ كأنهم أعجاز نخلٍ منقعِر ، فكيف كان عذبي ونُذُر » .
(القمر الآية ١٨–٢١)

« وأما عادٌ فأهلكوا بريح صرصر عاتيـــة ، سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً ، فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية » .
(الحاقة الآية ٦–٨)

ز – ثمود :

« كذبت ثمود بالنذر ،فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذا لفيضلال وسعُر ،أألْقي الذعر عليه من بينِنا بل هو كذاب أَشِر ، سيعلمون غداً مَن الكذابُ الأشر انا مرسلوا الناقةِ فتنة لهم فارتقِبْهم واصطبر ، ونبئهم أن الماء قِسمة بينهم كلُّ شِربٍ مُحْتَضَر ، فنادوا صاحبَهُمْ فتعاطى فعقر ،فكيف كانعذابي ونُذُر ،إنا أرسلنا عليهم صيحةواحدة فكانوا كهشيم المحتضِر» . (القمر الآية ٢٣–٣١)

ح – قوم لوط :

« فلما جاء آل لوط المرسلون ، قال إنكم قوم مُنْكَرون ، قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون ، وأتيناك بالحق وإنا لصادقون ، فأسر بأهلِك بقِطْعٍ من الليـل واتّبِـعْ أدبارَهم ولا يلتفت منكم أحد وامضوا حيث تؤمرون ، وقضينا إليه ذلك الأمرَ أنّ دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، وجـاء أهـــلُ المدينة يستبشرون ، قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ، واتقوا الله ولا تخزون ، قالوا أوَلَـمْ نَنْهَكَ عن العالمين ، قال هؤلاء بنـاتي إن كنتم فاعلين ، لعَمْرُكَ إنهم لفي سكرتهم يعمهون ، فأخذتهم الصيحـة مُشْرِقِين ، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل ، إن في ذلك الآيات للمتوسمين ،

وإنها لبِسبيلٍ مقيم إن في ذلك لآيةً للمؤمنين » . (الحجر الآية ٦١–٧٧)

« فلما جـاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجّيل منضود ، مسومةً عند ربـك وما هي من الظالمين ببعيد ». (هود الآية ٨٢–٨٣)

« ولوطاً إذ قال لقومه أتأتون الفاحشةَ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ، إنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون ، وما كان جوابَ قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون ، فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ، وأمطرنا عليهم مطراً فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » . (الأعراف الآية ٨١–٨٤)

ط – قوم شعيب :

« وإلى مَدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين ، ولا تقعدوا بكل صراط تُوعِدون وتَصُدون عن سبيل الله مَنْ آمنَ بـه وتبغونها عوجاً واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثّركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين ، وإن كان طائفةٌ منكم آمنوا بالذي أُرسلتُ به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين، قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معـك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أو لو كنا كارهين ، قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعدَ إذا نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعودَ فيها إلا أن يشاء الله ربُنا وسع ربُنا كل شيء علماً على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ، وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين، الذين كذّبوا شعيبا كأنْ لم يَغْنَوْا فيها الذين كذّبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » . (الأعراف الآية ٨٥–٩٣)

ي – فرعون وقومه :

« ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ». (الأعراف الآية ١٣٠)

« فأرسلنا عليهم الطُوفان والجراد والقمّلَ والضفادع والدّمَ آيات مفصلات

فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، ولما وقع عليهم الرِجْزُ قالوا يا موسى ادع لنا ربُك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمن لك ولنرسلن معك بني اسرائيل ، فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون،فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » . (الأعراف لآية ١٣٣–١٣٦)

ك – بنو اسرائيل :

« وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسِدُنّ في الأرض مرتين ولتعلُنّ علواً كبيراً ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ، ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً،إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا ، عسى ربُّكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » . (الإسراء الآية ٤–٨)

« وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين ، يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى إن فيها قوماً جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون ، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهمُ الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين ، قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربُّك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، قال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين ، قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنةً يتيهون في الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين » . (المائدة الآية ٢٠–٢٦)

ل – اصحاب النبي ﷺ :

« ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ، ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ، ثم يتوبُ الله من بعد ذلك على من يشاء

والله غفور رحيم » . (التوبة الآية ٢٥–٢٧)

« ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » . (آل عمران ١٥١–١٥٢)

ثانياً : تعليقـــات

أ – يلاحظ من الأمثلة القرآنية السابقة أن عقوبة القهر الإلهي في الدنيا تأتي بأشكال متعددة فقد تكون غرقاً ، وقد تكون صاعقة ، وقد تكون مرضا ، وقد تكون زلزالا ، وقد تكون..... وفي الحقيقة ما من مصيبة يصاب بها الإنسان إلا وهي أثر من آثار هذا القهر ، وقد ذكرت هذا المعنى الآية « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » . وإن لم تكن المصيبة عقوبة فهي تربية أو امتحان أو ترقية لمقـام « ونبلوكم بالخير والشر فتنة » .

ب – إن عقوبة القهر الإلهي العام لا تظهر إلا إذا سبقها رخاء ، لذلك كان من سنة الله أن يمد للظالمين والكافرين ، فترى الظالمين والكافرين مهما ذكّروا لا يتذكّرون ، وعندئذ تنزل بهم عقوبة القهر الإلهي فإذا هم زاهقون وقد ذكرت هذا المعنى الآيات :

« ولقد أرسلنا الى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون ، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون ، فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بمـا أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ، فقطـــع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين » . (الأنعـام الآية ٤١–٤٥)

جـ – يلاحظ أن الكافرين والغافلين لرؤيتهم اضطراد نزول البلاء والرخاء عليهم وعلى الناس غيرهم لا يظنون أن لله دخلا فيما يحدث من ذلك بل يتصورون أن ذلك محض عادة طبيعية ومصادفة غير مقصودة فإذا وقع زلزال لا يربطون بين الزلزال وعقوبـة الله وإذا حدث خسف لا يربطون بينـه وبين عقوبة القهر الإلهي وإذا حدث غرق أو عواصف أو

صواعق فهذا كله لا علاقة لعقوبة القهر فيه مـا دام نازلاً بغيرهم ولم يستأصلوا بعد وقد ذكر القرآن هذا المعنى بقوله :

« وما أرسلنا في قرية من نبي إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضّرعون ، ثم بدلنا مكان السيئةِ الحسنةَ حتى عفَوا وقالوا قد مس آباءَنا الضراءُ والسراءُ فأخذناهم بغتةً وهم لا يشعرون » . (الأعراف الآية ٩٤-٩٥)

« ويرسل الصواعقَ فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال» .

د - ومن عكس الكافر والغافل يكون المسلم ، فما من مصيبة تنزل به مهما كان شأنها صغيرة وكبيرة ، عامة أو خاصة ، إلا وتجعله يحس أنه فعل شيئاً استحقها به فيرجـع الى لله ويتوب .

« ولما أصابتكم مصيبةٌ قد أَصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عندِ أنفسكم » .

وينتج عن هذا أن المسلم يأخذ درساً من المصيبة فترجعه الى الله ، ويفكر ماذا فعـل حتى استحقها ، فيحاسب نفسه ويطهرها . وينتج عن ذلك كذلك أن يرضى بالمصيبة لما أنها عقوبة عاجلة على ذنب في الدنيا تكفره عنه فيصبر ويحتسب ولا يتضجر وفي الحديث :

(ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا كفر الله بها سيئاته وحطت عنه ذنوبه كما تحط الشجرة ورقها) متفق عليه .

(ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه) متفق عليه .

(ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعـالى وما عليه خطيئة) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

عن مصعب بن سعد عن أبيه رضي الله عنه قال : (قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء ؟ قال الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان شديداً في دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلاه الله على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة) أخرجه الترمذي .

وعن جابر - رضى - « دخل رسول الله ﷺ على أم السائب - رضى - فقال ﷺ مالكِ تزقزقين فقالت : الحمى لا بارك الله فيها فقال : لا تسبي الحمّى فإنها تُذهب خطايا

بني آدم كما يذهب الكير خبث الحديد) .

هـ – إن عقوبة القهر الإلهي في الدنيا ليس شرطاً أن تنزل بكل كافر أو منافق ، قد تنزل وقد يمد الله لأمثال هؤلاء ليعذبهم في الآخرة أشد وأبقى :

(وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، لا تركضوا وارجعوا الى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين ، فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيدا خامدين » .

« ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيدا ، فكيف اذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم » .

« ذرني ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيدا ، سأرهقُه صَعودا » .

و – وقد تكون عقوبة القهر الإلهي متمثلة بتسليط أمة على أمة ، أو الناس على الناس . قال تعالى :

« قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يَلبِسَكُم شيعاً ويذيقَ بعضكم بأسَ بعض » .

ولعل الصورة المخيفة للواقع القريب ترينا مظاهر هذا .

لقد خلق الله هذا الكون ليستخدمه الإنسان لصالحه ، وإذا بالإنسان يستخدمه لتدمير كل شيء . ولعل ما حدث في الحرب العالمية الأولى والثانية مثالان على هذا النوع من القهر .

وقد يسلّط الله على المسلمين بذنوبهم غير المسلمين ، وتروج بين الناس حكمة تمثل هذه السنة لله تقول (اذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني) وفي الآثار ما يؤيد هذه الحكمة ، وفي الواقع ما يدل عليها .

ز – مما تقدم نعلم أن عقوبة القهر الإلهي تظهر بمظاهر متعددة وكلها مستورة بعالم الأسباب .

« قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين » .

ونعيد هنا الفكرة التي ذكرناها أكثر من مرة :

إن الكافر لا يرى إلا السبب المادي القريب .

أما المؤمن فيري أن كثيراً من الأسباب المادية ترافقها أسباب غيبية، يعرفها بواسطة الرسول الصادق . كالموت له سبب حسي كالسكتة القلبية ، وسبب غيبي هو نزع الروح من الجسد بواسطة الملك .

ثم المؤمن بعد ذلك يرى أن السبب الحسي والسبب الغيبي حال وجوده يكونان بقدرة الله دائماً وأبداً . ومن ثم تكون عند المؤمن ملكة الاعتبار ، وتموت هـذه الملكة عند الكافر . إن المؤمن يرى الله وراء كل شيء ، وراء النعمة والنقمة ، والنصر والخذلان ، والضر والنفع والبأساء والضراء « ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون » . والكافر أعمى البصر والبصيرة ، لا يرى إلا ظواهر الأشياء ولا يعرف حقائقها :

« يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » .

وهو دائماً يعذّب ويشقى جسدياً أو نفسياً ، وهو لا يحس بأن ذلك بسبب بُعده عن طريق الله ودينه وشريعته أي الإسلام .

ب - المؤيدات الربانية في الآخرة

الكلام عن الآخرة يأتي في الدرجة الثانية بعد الكلام عن الله جل جلاله. ولكننا بدأنا دراساتنا في الأصول الثلاثة بالكلام عن الله ، وختمناه بالحديث عن الآخرة . على اعتبار أن الآخرة هي النهاية ، والإسلام هو الطريق إليها ، فهي خاتمة المطاف .

وقد حرصنا أثناء الكلام عن الآخرة أن نعرض للموضوع بأساليب متعددة ، وأن ننقل فيه لأعاظم من كتبوا عنه ليتأكد مضمونه في القلب تأكداً تاماً. فبدأنا الحديث عنه بنقول للشيخ سعيد النورسي . وختمنا الحديث عنه بكلام للمودودي فيه . وتصرفنا في كلامهما نوع تصرف لا يخل بالمعنى لينسجم مع طبيعة هذا الكتاب . وإذا كثر النقل في هذا الفصل ، فلأنا نود تقليب الحديث حتى لا يبقى لكافر حجة ، ولم نرد في الكتاب كله إلا تربية الإيمان ، فما أعاننا على ذلك أخذناه دون نظر إلى ما يمكن أن ينتقدنا فيه الناقدون .

ولنبدأ الآن الحديث عن اليوم الآخر :

- ١ -

يقول الشيخ سعيد النورسي :

(انظر إلى قوة حقانية الحشر والآخرة ، فلا يمكن أن يكون سلطان بـــلا مكافأة للمطيعين ومجازاة للعاصين) .

لا سيما : إذا كان له كرم عظيم يقتضي الإحسان ، وعزة عظيمة تقتضي الغيرة ، وهذه الدار لا تفي بعشر معشار عشير ذلك الكرم وتلك العزة .

لا سيما : إذا كانت له رحمة واسعة تقتضي فضلاً يليق بسعة رحمته ، وله جلال يقتضي

تربية من يستخف به ولا يوقره .

لا سيما : إذا كانت له حكمة عالية تقتضي حماية شأن سلطنته ، برحمة الملتجئين إلى جناحه ، وتقتضي المحافظة على حشمة مالكيته بمحافظة حقوق رعيته .

لا سيما : إذا كانت له خزائن مشحونة ، وكرم مطلق ، وهذا يقتضي دار ضيافة دائمة ووجود ضيفان على الدوام .

وكيف وله كمالات تقتضي التشهير بالمجرمين .

وكيف وله جمال بلا مثل ،ولطائف حسن بلا نظير ،وهذا يقتضي إشهاداً ومشاهدين ، ومشتاقين متحيرين ، إذ الجمال الدائم لا يرضى بالمشتاق الزائل .

لا سيما : ومشاهد آثار سلطانه تدل على أنه في نهاية العظمة .

أنظر إلى رعيته فكأنما اجتمعوا في منزل سفر ، يملأ ويفرغ كل يوم ، وكأنما حضروا في ميدان امتحان يتبدل كل وقت ، وها هم توقفوا ليشهدوا غرائب صنعة الملك ، فهذا كله يقتضي بالضرورة أن يوجد خلف هذا المنزل والميدان والمشهد داراً دائمة ، مليئة مشحونة بأجود مما رأوا خلال السفر .

لا سيما : إذا كان الملك في نهاية الدقة في صفة الحاكمية ، فهو يكتب ويستكتب أدنى حاجة وأهون عمل وأقل خدمة ، ويأمر بأخذ صورة كل ما يجري في ملكه ، ويستحفظ كل فعل وعمل ، فهذا الحفظ يقتضي المحاسبة ، وخاصة في أعظم الأعمال من رعيته .

لا سيما : إذا كان الملك قد وعد وأوعد مكرراً بما إيجاده عليه هيّن يسير ، ووجوده للرعية في نهاية الأهمية ، فخلف الوعد غاية في البعد عن العزة والاقتدار .

لا سيما : إذا أخبر كل رسول للملك أنه أعد للمطيعين والعاصين دار مكافأة وجزاء ، وأنه يَعِدُ وعداً قوياً ، ويوعد وعيداً شديداً ، وهو أجلّ وأعز منه أن يذل ويتنزل بخلف الوعد ، والمخبرون متواترون وهذه السلطنة العظيمة لا تقوم على هذه الأمور الزائلة الواهية المتبدلة السيالة فقط .

لا سيما : إذا أظهر الملك في المنازل الزائلة ، والميادين الهائلة آثار حكمة باهرة ، وعناية طاهرة ، وعدالة عالية ، بحيث يعرف باليقين من له بصيرة أنه لا يمكن أن يوجد

أكمل من حكمته وعنايته ورحمته وعدالته ، فلو لم يكن في دائرة مملكته أماكن دائمة خالدة للزم إنكار هذه الحكمة المشهودة ، وإنكار هذه الرحمة الظاهرة ، وإنكار هذه العدالة المنظورة .

لا سيما : والكرم بلا نهاية يقتضي الامتنان والتنعيم بلا نهاية ، وهما يقتضيان قبول المنة والتنعم بلا نهاية ، وهما يقتضيان دوام وجود الشخص المكرّم ليقابل دوام التنعم بشكر المنة الدائمة وإلا لصار المنعَم عليه يتنغص ليتذكر الزوال الأبدي .

. . . . . .

إن الحقائق المستقرة الثابتة أن صاحب الجمال يحب أن يُشاهد جماله وينظر إلى محاسنه ، فالحسن والجمال يقتضيان الشهود والإشهاد .

إن هذا العالم كما يستلزم صانعه بالقطع واليقين ، فصانعه يستلزم الآخرة بلا شك ولا ريب .

. . . . . .

لا سيما : وأن مالك هذا العالم يجيب الملهوف المستغيث ، والداعي المستجير ، وأنه يسمع أخفى نداء من أخفى خلق . فهذا يقتضي أن تسعف أعظم حاجة من أعظم عباده وأحب خلقه إليه .

خاصة إذا أمّن على دعاء ذلك الحبيب جميع الخلق بألسنة الأقوال والأحوال .

وأي حاجة أعظم من الخلود .

خاصة إذا كانت تلك الحاجة كلمح البصر ، سهلة يسيرة على المالك الكريم .

خاصة إذا تضرع ذلك الحبيب بأنواع التضرعات الحزينة ، متذللا بأنواع الافتقارات ، متحببا بأنواع العبادات ، وقد اصطف خلفه مؤتمين به ، مؤمّنين على دعائه الأنبياء والأولياء والأصفياء ، والطلب الجنة والبقاء ، والسعادة الأبدية والرضا ، قبل أن يكون هذا كان .

. . . . . .

لا بد أن يتفطن الإنسان أن هذه الدنيا بذاتها ولذاتها ، بل هي منزل يملأ ويفرغ ، وساكنوها مسافرون يدعوهم رب كريم إلى دار السلام، وأن هذه الزينة فيها ليست للذة والنزهة فقط بدليل أنها تلذك آناً ، ثم تؤلمك بفراقها أزماناً ، وتذيقك لتفتح شهيتك ولكنها لا تشبعك لقصر عمرها أو لقصر عمرك ، فهي للعبرة والشكر ، وهي للشوق إلى الأصول الدائمة ، والغايات العلوية ، وأن ما فيها من الزينة صور لما اخره الرحمن في الجنان لأهل الإيمان، وأن هذه الفانيات اجتمعت اجتماعاً قصيراً لتؤخذ صورها وتماثيلها ومعانيها ونتائجها نماذج فينسج منها مناظر دائمة لأهل الأبد ، فيختار منها صانعها ما يشاء لأهل البقاء وقد فعل .

. . . . . .

انظر من كلمات القدرة إلى هذه الزهرة التي تنظر إلينا في وقت قصير . ثم تفنى تراها كالكلمة التي تزول وتترك في الآذان صدى لآلاف مثلها ، وفي العقول كذلك من معانيها . إذ هي وقت تمام وظيفتها تبقى وتودع في حافظتنا وفي حافظة كل من رآها الشهادة ، وفي بذورها صورها ومعانيها، حتى كأن بذورها وعقولنا لمجرد حفظ زينتها وصورتها، وكأنها منازل لبقائها ، وقس على هذه الزهرة ما فوقها وفوق ما فوقها من ذوي الأرواح الباقية تجد أن الإنسان ليس سدى يسرح كيف يشاء ، بل تؤخذ صور أعماله وتكتب وتحفظ ليحاسب ، إن تخريب الخريف لجمال الربيع إنما هو ترخيص بتمام الوظيفة ، واستعداد لوفود وفود جديدة، وتحضير لمجيء مصنوعات موظفات، وتنبيه من الغفلات والسكرات، أن لصانع هذا العالم عالماً آخر يسوق إليه عباده ويشوقهم إليه ، وأنه قد أعد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

. . . . . .

انظر إلى حافظة البشر ، وثمرة الشجر ، ونواة الثمر ، وبذر الزهر ، لتفهم عظمة إحاطة اسم الله الحفيظ حتى في الحائل الزائل ، وقس على هذا ما يجري في العوالم الغيبية لتعلم أن لصاحب هذا العالم اهتماماً عظيماً بانضباط ما يجري في ملكه ، وأن له نهاية الكمال في حاكميته ، وأن ربوبيته على خلقه تامة ، فهذا كله يصرح أنه لا بد من حساب ، وإلا لماذا تحفظ الأعمال والأفعال والأقوال .

إن هذا كله يستلزم المحاسبة خاصة لأعظم الأعمـــال ، من أكرم المخلوقات وأشرفها الإنسان، لأن الإنسان كالشاهد على شؤون الربوبية ، وكالدلال على الوحدانية، وكالمشاهد لتسبيح الوجود .

« أيحب أن يترك سدى » .

كلا بل سيحاسب على السبد واللبد ، وسيذهب إلى الحشر ليتقرر مصيره إلى الأبد وما الحشر والقيامة بالنسبة إلى قدرة الله إلا كالربيع بعد الخريف .

إن كل ما يقع معجزات قدرته ، وكلها تشهد على قدرته مستقبلاً ومآلاً .

. . . . . .

ليس إيجاد الحشر بانقلاباته وما فيه بأعسر عليه من إيجاد الربيع بتحولاته وجناتــه « الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيـــه ومن أصدق من الله حديثاً » كيف لا يصدق حديث من هــذه الموجودات كلماته الصادقة ، وهذه الـكائنات آياته الناطقــة .

. . . . . .

لقد أخبر كل ما ذهب من الظاهر إلى الحقيقة ، من ذوي الأرواح النيرة ، والقلوب المنوّرة والعقول النورانية ، ودخل في حضرة قربه سبحانه، أنه أعد للمطيعين والعاصين دار مكافأة وجزاء .

تأمل في كيفية إحياء الأرض في الحشر الربيعي كي ترى قريباً من ثلاث مائة ألف حشر ونشر، بكمال الانتظام في مقدار ستة أيام، وبكمال الامتياز والتشخيص مع غاية اختلاط تلك الأموات غير المحصورة ، مشتبكة منتشرة متداخلة في صحيفة الأرض ، فمن يفعــل هذا كيف يؤوده شيء، وكيف لا يخلق السموات والأرض في ستة أيام، وكيف لا يكون حشر الإنسان كلمح البصر بالنسبة إليه . من يكتب ثلاث مائة ألف كتاب قد انمحت حروفها في صحيفة واحدة معــاً ، بلا خلط ولا غلط ولا مرج ولا مزج كيف يعجز عن استنساخ كتاب هو ألفه أولاً ثم محاه .

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو

على كل شيء قدير » .

. . . . . .

يا من رافقني بفهمه من أول المسألة إلى هنا ، لا تظنن انحصار الدلائل فيما سبق كلا ، بل يشير القرآن الحكيم إلى ما لا يعد ولا يحصى من أمارات ، ان خالقنا سينقلنا من هذا المشهد المؤقت إلى مقر سلطنته الدائمة كما لوّح القرآن إلى ما لا يحد ولا يستقصى من علامات على أنه جل جلاله سيبدل هـــذه المملكة السيارة القابلة للفناء بتلك المملكة المستمرة السرمدية . اهـ

وبعد :

- ٢ -

ما من شيء في دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام استبعده الناس واستغربوه وأنكروه واستهزءوا به كالدعوة إلى الإيمان باليوم الآخر ، فترى أجيال الكافرين جيلا بعد جيـــل مصرة على هذا الإنكار . وقد عرض علينا القرآن نماذج من هذا الإنكار :

« وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » .

« أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد » .

« وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت » .

« وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديدا » .

« ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا » .

« أيَعِدُكم أنكم إذا مِتّم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مُخرجون ، هيهاتَ هيهاتَ لما توعدون ، إن هي إلا حياتُنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، إن هو إلا رجـــل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين » .

« بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » .

« بل كذبوا بالساعة » .

« بل ادّارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون » .

« وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون » .

« وقالوا إنْ هــــذا إلا سحر مبين ، أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون » .

« كلا بل لا يخافون الآخرة » .

لقد استبعدوا الموضوع لأن مقدماته القريبة والظاهرة لا تدل عليه كما يستبعد العامي رقماً حسابياً ضخماً بداياته صغيرة جداً .

قالوا : لمّـا اخترع صاحب الشطرنج الشطرنج ، عُرض عليه أن يطلب مكافأة ، فقال : مكافآتي أن تضع في البيت الأول من بيوت الشطرنج حبة قمح ، ثم تضع في الثانية ضعفها ، ثم في الثالثة ضعف ما وضعت في الثانية ، وفي الرابعة ضعف ما وضعت في الثالثة ، وهكذا حتى تتم بيوت الشطرنج الأربعة والستون وتصور ملكه . إن هذا طلب بسيط يكفي فيه رطل من القمح ولكن عندما حسبت تبين أن قمح العالم كله يومذاك لا يكفي ولا لسنوات لإتمام العملية .

وقالوا : لو أخذنا ورقة سيجارة وقسمناه ووضعنا الناتج فوق بعضه ثم قسمنا الناتج ووضعناه فوق بعضه ثم قسمنا الناتج ووضعناه فوق بعضه وكررنا العملية ٤٨ مرة فإن سمك الناتج يكون من الأرض إلى القمر ولكنك لو سألت أمياً عن الناتج لأجابك أن سمك الناتج خمسة سنتميترات أو عشرة أو خمسة عشر أو متراً أو مترين ، أما أن تكون النتيجة كذلك فهو يراها قبل الدليل أشبه بالخرافات .

المسألة بالنسبة لليوم الآخر هكذا عندما يدرسها الإنسان من مقدماتها القريبة يراهـا غير متوقعة ولكن عندما ينظر إليها نظرة شاملة يراها كالنتيجة الرياضية لا تتخلف ولا يطرأ عليها الشك .

فلننظر إلى المسألة نظرة شاملة :

إن المسألة بكل بساطة هي ما يلي :

١ — ان الله عز وجل موجود وقد رأينا دليل ذلك في البحث الأول (الله) .

٢ — والله عز وجل عليم وقد رأينا دليل ذلك .

٣ ـ والله عز وجل قادر وقد رأينا دليل ذلك .

٤ ـ والله عز وجل مريد وقد رأينا دليل ذلك .

٥ ـ والله عز وجل عادل وقد رأينا دليل ذلك .

٦ ـ والله عز وجل منتقم وقد رأينا دليل ذلك .

٧ ـ والله عز وجل كريم ومنعم وقد رأينا دليل ذلك .

فهذا الإله القادر الذي خلق السموات والأرض لا يعجزه أن يخلق الإنسان مرة ثانية، وهذا الإله العليم بكل شيء لا تعزب عنه ذرات الإنسان إذا أراد جمعها ، وهـذا الإله العادل أعلم بكيفية الجمع الذي لا يكون معه ظلم ، ومقتضى عدله أن يحاسب الإنسان ، لأنه سخر له كل شيء ، ومقتضى عدله أن لا يكون من أحسن كمن أساء ، ومقتضى عدله أن يقتص للمظلوم من الظالم .

وهذا الإله المنتقم مقتضى انتقامه أن ينتقم ممن حاربوه وآذوا رسله ولم يطيعوه،وهذا الإله الكريم المنعم مقتضى إنعامه أن يحسن لمن أحسن وأطاع ووالى أولياء الله في الدنيا.

وأخيراً هذا الإله الفعال لما يريد،أراد أن تكون المسألة بالنسبة للإنسان من المخلوقات الظاهرة ، والجان من المخلوقات الغيبية هكذا ، ولا يُسئل عما شاء وعما أراد،لأن عظمته وجلال شأنه أكبر من أن تحاسَبْ ، بل هي تحاسب من شاءت .

ثم ان رسل الله صلوات الله عليهم وسلامه كلهم أخبروا الإنسان أن أمامه بعثا ثانياً وحياة ثانية دائمة وجنة أو ناراً هؤلاء الرسل الذين قامت الأدلة الكاملة على صدقهم قد أخبرونا عن الله ذلك فلم يبق أمام الإنسان إلا أن يكيف سلوكه تبعاً لذلك .

وقد ناقش الله في القرآن منكري اليوم الآخر نقاشاً طويلا وأقام عليهم الحجة بـــه فلنعرض نماذج من نقاش القرآن لهؤلاء .

- ٣ -

أ ـ قال تعالى : « وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينّكم عالمِ الغيب لا يعزُبُ عنه مثقالُ ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغرُ من ذلك ولا أكبرُ إلا في كتاب مبين، ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم،

والذين سَعَوا في آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رِجْزٍ أليم، ويرى الذين أوتوا العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحقَ ويهدي إلى صراط العزيز الحميد » .

ردت هذه الآيات على المنكرين بما يلي :

١ – بينت حكمة الساعة وأنها لإثابة المحسن ، وتعذيب الذين حاربوا الله ورسوله وصدوا عن سبيله .

٢ – أشارت إلى أن الله الذي لا يعزب عن علمه شيء هو الذي أراد هذا .

٣ – القرآن حق يعلم هذا كل من عنده علم ، وكون القرآن حقاً وقد أخبر بها فذلك دليل على أنها آتية .

ب – « وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزّقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد افترى على الله كذباً أم به جنة بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد، أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء إن في ذلك الآية لكل عبد منيب » .

١ – لفتتهم هذه الآيات إلى المخبر لهم عن الساعة وهو محمد عليه الصلاة والسلام وسألتهم هل هو كذاب على الله أو مجنون ؟ فإن لم يكن لا هذا ولا ذاك فالذين لا يؤمنون بالآخرة هم الضالون .

٢ – لفتتهم إلى قدرة الله في السماء والأرض وما يمكن أن يحدث فيهما بقدرته، وبينت أن الذي يعرف قدرة الله في خلقه يجد ذلك آية على أن الله قادر على إقامة الساعة .

جـ – « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقرُ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يُتَوفّى ومنكم من يُردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الارض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزت ورَبَتْ وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور » .

عالجت الآيات شك الشاكين بما يلي :

١ – لفتتهم إلى نشأتهم كيف أنهم كانوا تراباً ثم صار التراب غذاءاً ومن الغذاء تكوّن المني ثم كان اللقاح ثم بـــدأ تطور الجنين حتى ولد طفلاً ثم كبر ثم عجز ، فالله الذي نقل الإنسان من طور إلى طور حتى أوصله إلى ما وصل إليه ، هـل يعجزه أن يخلق الإنسان مرة ثانية دفعة واحدة .

٢ – لفتتهم الآية إلىالنبات الذي يجف حتى يموت كيف يحييه الله عز وجل مرة ثانية ، فالله الذي فعل هذا أيعجزه أن يخلق الإنسان مرة ثانية .

إن الله الذي فعل هذا وهذا قادر على أن يبعث الناس جميعاً مرة أخرى فلا مجـــال للشك إذن بقيام الساعة .

د – « أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال : من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرةٍ وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون ، أو ليس الذي خلق السموات والارضَ بقـــادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه تُرجعون » .

١ – لفتت الآيات الإنسان إلى موقفه الشائن حيث يقف خصماً لله الذي خلقه منهذه النطفة الحقيرة .

٢ – ومنخصومة الإنسان لله استبعاده أن يخلقه الله مرة ثانية ،مع أنه لو تذكر كيف خلقه أول مرة لم يستبعد أن يخلقه مرة ثانية .

٣ – الله الذي خلق كل شيء للإنسان لا ينبغي للإنسان أن يقف منه هذا الموقف .

٤ – الله خلق السموات والارض ، والذي يخلق بمجرد الإرادة والأمر ، أليسقادراً على أن يخلق مثل الإنسان ، والذي يقدر على هذا كيف يستبعد منه إعادة الإنسان ؟.

هـ – « وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديـد أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

أشارت الآية إلى أن الذين ينكرون البعث إنما يكفرون في الحقيقة بالله ، إذ لو كانوا يعرفون الله حق المعرفة لما أنكروا الساعة والقيامة ، وإنه لعجب أن ينكر الإنسان

البعث وهو يعرف الله ويعرف قدرته .

و — « لَخَلْقُ السموات والأرض أكبر من خلقِ النـــاس ولكن أكثر النــاس لا يعلمون » .

الذي يعرف شيئاً عن سعة الأجرام السماوية ، وعن هذا الفضاء الكبير ، يعرف أن خلق الناس بالنسبة إلى ذلك أمر بسيط . فإنكار الإنسان لليوم الآخر شيء عجيب مع قيام الحجة ، إن الله هو خالق السموات والأرض .

ز — « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا تُرجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم » .

إن الإنسان عندما يتصور أنه غير راجع إلى الله ، وأنه غير محاسب ، وأنه يعمل ما يريد فعله في هذه الحياة ثم يمضي إلى غير رجعة ، إن هذا الإنسان عندما يتصور هـــذا التصور ، إنما يحكم على الأشياء كلها وعلى ذاته خاصة بأنها مخلوقة للعبث واللهو . لا لحكمة ، وهو بذلك يتهم الذات الإلهية أو ينكرها ، والحقيقة خلاف هذا وهذا ، والله عز وجل منزه عن هذا وهذا ، بل خَلَقَ الإنسان لحكمة ، وسيحاسبه على أفعاله كلها .

ح — « أيحسب الإنسان أن يترك سدى ، ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقـــة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر أن يحيي الموتى » .

إن الانسان الذي أعطى الوجود كله « ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما الأرض » . لا يعامل كما يعامل التراب وأمثاله ، فهو سيطالب بقدر ما أعطي ويحاسب ، وهذا منطق الوجود كله ، على قدر ما تعطى تطالب ، فلن يترك الإنسان وقد أعطي ما أعطي مهملاً ، بل سيحاسب على كل صغيرة وكبيرة من قبــل ربه عز وجل ، والله الذي خلقه من نطفة ثم طوّره قادر على أن يعيده مرة ثانية ليحاسبه .

ط — « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب ، أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ، قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » .

ردت الآية على عجبهم من إعــادتهم بعد أن يكونوا ترابا بعلم الله الذي يعلم كل شيء ، فيعلم ذراتهم إلى أي شيء تؤول ، وما دامت المسألة كذلك فكيف يكون عجب ، بل العجب من تصورهم أن الله ذا الجلال والكمال لا يقدر على إعادتهم .

ي – « وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يَكْبُرُ في صدوركم فسيقولون من يعيدنا ، قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً » .

استبعدوا أن إذا صاروا تراباً أن يبعثوا ، فقال لهم كونوا بعد موتكم أكثر من تراب : حجارة أو حديداً أو أي شيء تتصورونه كبيراً : هواءاً أو غازات أو نباتاً أو في أجسام أخرى أو ... فالذي خلقكم أول مرة وفيكم ذرات الحديد والذهب والفحم هو الذي سيعيدكم مرة أخرى .

ك – « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، ليبين لهم الذي يختلفون فيه وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين، إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » .

إن الله وعد – وإذا وعد لا يخلف الميعاد – أن يقيم الساعة ، ويبعث الأموات ، والحكمة في ذلك كي يبين للناس الحق فيما اختلفوا فيه ، وليبين للناس أن الرسل كانوا صادقين ، وأن الذين كذبوهم هم الكاذبون ؛ وليس ذلك يصعب على الله الذي يقول للشيء كن فيكون . هذه هي الحقيقة ولو جهلها أكثر الناس .

. . . . . .

هذه نماذج من نقاش القرآن للكافرين في قضية البعث ، والقرآن مليء بمثل هذا،فقضية اليوم الآخر تعدل قضية الإيمان بالله في ميزان القرآن ، لذلك كثيراً ما تقترنان، وما وصف الرسل بأنهم مبشرون ومنذرون إلا من أجلها،هذه مهمتهم الأساسية أن يبشروا المؤمنين بجنة الله ، وينذروا المكذبين بنار الله . المؤمنون عرفوا الرسل وصدقوهم وقالوا :

« ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » .

والكافرون حاربوا الرسل وآذوهم وعذبوهم وصدوا عن صراط الله عز وجل وقالوا:

« ما أنْزَلَ الله على بشر من شيء » .

فاستحق كل من الطرفين جزاء عمله :

« إن الأبرار لفي نعيم ، وإن الفجار لفي جحيم يصلونها يوم الدين ومـا هم عنها بغائبين ، وما أدراك ما يوم الدين ثم ما أدراك ما يوم الدين يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » .

هذا هو المؤيد الأعظم لرسل الله ، وهذا هو المؤيد الأعظم للاسلام ، إن مشيت في طريق الإسلام فلك الجنة ، وإن مشيت في طريق الضلال فلك النار ، وقبل الجنة والنار نعيم وأهوال أخبر عن ذلك كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأخبر عن ذلك كل رسول لله وفصّل هذا كله محمد رسول الله وخاتم النبيين .

– ٤ –

فالله عز وجل جعل الحياة بالنسبة للإنس والجن حياتين : الحياة الدنيا ، والحياة الآخرة ، وجعل الحياة الآخرة هي المقر ، وجعل الحياة الدنيا هي الممر . قال ابن مسعود (مالي وللدنيا ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها) .

وفي الأثر (كن في الدنيا كغريب أو عابر سبيل) .

فالدنيا ليست دار قرار للإنسان، وكل ما فيها تافه وحقير إذا قيس بالآخرة ، كما أنها فانية والآخرة باقية ، ومجنون من يفضل فانياً تافهاً على باق عظيم ، ولكن الإنسان في هذا الموضوع كالطفل الذي يفضل الغريب المألوف على أبيه وأمه القريبين الغائبين يفضل الأدنى على الأعلى ، والعاجلة على الآجلة ، لأن العاجلة الأدنى هو منها على تماس ، أما الآجلة الأعلى فهو منها على موعد ، ولو عقل لعرف أن موعداً من الله وعلى لسان رسوله أوثق إلى مـا لا يتناهى مما هو في اليد ، لأن ما في اليد من الله ونافد ، ومـا عند الله حاصل وباق :

« ما عندكم ينفد وما عند الله باق » .

« بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى » .

« كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة، وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، ووجوه يومئذ باسرة تظن أن يُفعَلَ بها فاقرة » .

ولذلك أكثرَ الله عز وجل وأكثر رسوله من ضرب الأمثال على حقارة الدنيا وفنائها، وجلال الآخرة وبقائها ، ليعقل من عقل ، ويبقى سادراً في جنونه من جن ، وأي جنون أكبر من الغفلة عن نعيم الآخرة وشقائها :

قال عليه الصلاة والسلام : (ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه وأشار – يحيا – بالسبابة في اليم فلينظر بم يرجع) مسلم والترمذي .

(ومر عليه الصلاة والسلام بالسوق داخلاً من بعض العوالي والناس كنفتيه فمر بجدي ميت أسك فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال : أيكم يحب أن هذا له بدرهم ؟ قالوا ما نحب أنه لنا بلا شيء وما نصنع به ؟ إنه لو كان حياً كان عيباً به أنه أسك قال : فوالله للدنيـــا أهون على الله من هذا عليكم) مسلم وأبو داوود .

وقال عليه السلام (الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم) الترمذي .

وقال تعالى : « يا أيها الناس إنما بغيُكُم على أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينـــا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ، إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم َتغْنَ بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون » .

وقال : « وفرحوا بالحياة الدنيا وما الحيــاة الدنيا في الآخرة إلا متاع » أي متعة لا تدوم .

وقال : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً َتذْروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً » .

وقال : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » .

والحيوان مصدر حيي أي لهي دار الحياة الحقيقية لامتناع طريان الموت فيها .

وقال : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتـكاثر في الأموال

والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباتـه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » .

ولكن هذه الحقيقة لا يستفيق عليها في الدنيا إلا المؤمنون لذلك تصبح الدنيا بالنسبة لهم سجناً ينتظرون الخروج منه ، أما الكافرون فيعتبرونها جنة يتمنون البقاء فيه :

يقول عليه السلام : (الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر) مسلم والترمذي .

ويستفيق على هذه الحقيقة في الآخرة الكافرون :

« يوم يُنفَخُ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً ، يتخافتون بينهم ، إن لبثتم إلا عشراً ، نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلُهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً » .

« قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين، قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم فاسأل العادّين، قال إن لبثتم إلا قليلاً لو أنكم كنتم تعلمون » .

ولهذا كله لا يعتبر إنسان في ميزان الله عالماً ولو عرف هذا الكون كله إلا إذا عرف الآخرة وآمن بها وعرف أنها خير من الدنيا :

« وقال الذين أوتوا العلم وَيْلَكُمْ ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يُلقّاها إلا الصابرون » .

« وَعْدَ الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ، أو لم يتفكروا في أنفسهم مـا خلق الله السموات والأرضَ وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون ، أو لم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشدّ منهم قوة وأثاروا الأرض وعَمَروها أكثرَ مما عَمَروها وجاءتهم رسلُهم بالبينات فما كان الله ليظلمَهُم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ومن رأى الأهرام وآثـار بعلبك وتَدْمر رأى آثار عمارة الماضين للأرض .

« فأعرِضْ عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » .

هؤلاء الذين لا يعرفون الآخرة ، ولا يريدونها وقد قصروا همتهم على الدنيا ، سينالهم من عذاب الآخرة النصيب الأولى :

« من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب » .

« من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » .

والفارق بين مريد الدنيا ، ومريد الآخرة كبير جداً ، يظهر في الاعتقاد ، وفي يقظة القلب ، وفي السلوك . فطالب الآخرة يفضلها على الدنيا اعتقاداً وشعوراً ، ويقدم أعمالها على أعمال الدنيا ، ويجعل أعمال الدنيا وسيلة تقربة من رضوان الله في الدنيا والآخرة ، فإذا تعارضت صلاته مع عمله قدم صلاته ، وإذا عمل عمل بنية وجه الله فهو وأعماله على صراط الله الموصل إلى الجنة .

(رحم الله عبد الله بن رواحة كان أينما أدركته الصلاة أناخ) .

- ٥ -

إذن هناك دنيا وأخرى ، والحد الفاصل بينهما قيام الساعة ، فبقيام الساعة تنتهي الدنيا وتبدأ الآخرة ، هذه الساعة التي هي الحد الفاصل بين الدنيا والآخرة متى تكون؟.
إن الله عز وجل قد عمى خبرها فلم يخبر به أحداً :

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ، إنما أنت منذر من يخشاها ، كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها » .

« يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربي لا يجلّيها لوقتها إلا هو، ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ، يسألونك كأنك حفيٌ عنها ، قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

فهي إذن لا تأتي إلا بغتة ، غير أن لها علامات تدل على قربها ، وعندما نقول قربها نعني قربها النسبي ، أي بالنسبة لما هو عند الله ، أو بالنسبة لعمر الكون . قال تعالى : « اقتربت الساعة وانشق القمر» وقال: «فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » .
ومن أشراطها بعثة الرسول ﷺ روى البخاري عن رسول الله ﷺ قوله (بعثت أنا والساعة كهاتين يعني أصبعيه) .

وعلامات الساعة كثيرة وكل علامة من علاماتها شرط لوجودها، فما لم تظهر العلامات كلها لا تقوم الساعة وقد أشار الرسول ﷺ إلى كثير من هـذه العلامات وأشار القرآن إلى بعضها ، وبعض ما أشار إليه الرسول ﷺ وقع كما رأينا في بحث النبوءات من الكتاب الثاني / الرسول / وبعضها لم يقع، والذي لم يقع حتى الآن كثير مما يدل على أن بيننا وبينها بعداً نسبياً أي بُعْدٌ بالنسبة للزمن في حسابنا ، أما بالنسبة لعمر الكون أو للذات الإلهية فذلك قريب « وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون » . وبعض الأشراط وهي التي تسمى العلامات الكبرى تكون قبل قيام الساعة بقليل وهي مقدمات ضخمة بين يدي ذلك الحدث الضخم .

ونحن سنستعرض بعضاً من هذه الأشراط مبتدئين بالأشراط التي أشار إليها القرآن :

أ - ب - روى مسلم وأبو داود عن رسول الله ﷺ : (أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً) .

قال تعالى : « هـل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبـل أو كسبت في إيمانها خيراً قل انتظروا إنا منتظرون » . وقـــد فسر الرسول ﷺ آخر هذه الآية في الحديث الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : (لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان من المسلمين يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحـــدة ، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله ، وحتى يقبض العلم ، وتكثر الزلازل ، ويتقارب الزمان ، وتظهر الفتن ، ويكثر الهرج - وهو القتل - وحتى يكثر فيكم المال فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل صدقته ، وحتى يعرضه فيقول الذي عرض عليه لا أرب لي فيه ، وحتى يتطاول الناس بالبنيان، وحتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه ، وحتى تطلع الشمس من مغربهـا ، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون ، فذلك حين « لا ينفع نفس إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانهـا خيراً »فلتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه ، ولتقوم الساعـة وهو يليط حوضه فلا يسقي فيه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أكـْلته إلى فيه فلا يطعمها) .

وفي بعض روايات هذا الحديث يذكر أنه لا تقوم الساعة (... وحتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً) وواضح أن هذا العرض الطويل لما يكون قبل الساعة قسم منه قد رأيناه ومضى ، وقسم هو الآن في بداياته ، وقسم لم يأت دوره بعد .

قال تعالى : « وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون » ولم يرد في نص صحيح وصف لهذه الدابة إلا ما ورد في حديث تميم الداري في وصف دابة هي الجساسة / دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره / يقول العلماء إنها هي نفس الدابة . وإنما الوارد عن رسول الله قضية خروجها :

روى أحمد بإسناد رجاله رجال الصحيح ما عدا واحداً هو ثقة عن رسول الله ﷺ :

(تخرج الدابة فتَسِم الناس على خراطيمهم ثم يعمرون فيكم حتى يشتري الرجل البعير فيقول ممن اشتريته فيقول : اشتريته من أحد المخطمين) .

وللطبراني في الأوسط بإسناد رجاله ثقات عن رسول الله ﷺ :

(تخرج الدابة من أعظم المساجد فبينما هم كـــذلك إذ تصدعت) وأعظم المساجد المسجد الحرام .

جـ – د – هـ – نزول المسيح وفتح يأجوج ومأجوج .

قال تعالى عن المسيح : « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته » .

وقال : « وإنه لعِلم للساعة فلا تمترن بها » .

وقال عن يأجوج ومأجوج : « حتى إذا فُتحت يأجوج وهم من كل حدب ينسلون ، واقترب الوعد الحق » .

وأما الدجال فقد ورد فيه أكثر من سبعين حديثاً فحديثه متوافر من أنكره لا شك كفر ، ومرتبط موضوعه بنزول المسيح عليه السلام إذ أن المسيح هو الذي يقتله .

والمسيح والدجال ويأجوج ومأجوج في زمن واحد تقريباً وليس بين الساعة وهـــذه الأحداث إلا سنوات معدودات .

ولعل أغمض موضوع هنا هو موضوع يأجوج ومأجوج لكثرة الأحاديث الموضوعة ، والأوهام الكثيرة التي أحاطت بهم ، والحق في ذلك أنهما أمتان من بني آدم كثير عددهما ، موجودتان على الأرض ، لا نستطيع تعيينهما ، ولا تعيين محلهما ، اكتساحهم للمنطقـــة

العربية ، ودخولهم إلى فلسطين من علامات الساعة . أما ما يذكر من أنهم يحاولون يومياً فتح سدهم ولا يقدرون . فالحديث غريب وفي رفع متنه نكارة كما ذكر المحدثون . أما كون الآية فتح سدهم وقرب الساعة فقد رأينا أن الساعة اقتربت منذ زمن رسول الله ﷺ . وذهب بعضهم إلى أن سدهم المقصود به سد الصين العظيم [١] ، وبعضهم ذهب إلى غير ذلك وبعضهم ذهب إلى أنهما التتار والمغول ، وبعضهم الى أنه الجنس الآري كله بما في ذلك الشعوب الأوروبية الحالية ، وليس في ذلك كله ما يصلح للقطع غير أن هناك حديثين صحيحين يعطياننا بعض الفهم للأمر : روى الشيخان عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ دخل عليها فزعاً يقول لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلّق بأصبعيه الإبهام والتي تليها فقلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون قال : نعم إذا كثر الخبث) .

وأول شر أصيب به العرب كان على يد التتار والمغول ، فكأن ما أصيب به العرب يومذاك هو بداية الدفعة الأولى لخروج يأجوج ومأجوج هذا إذا صح فهمنا للحديث .

وفي الحديث الحسن الصحيح الآخر :

(أن النبي ﷺ لما نزلت : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شي عظيم » .. الآية قال : أتدرون أي يوم ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال : ذلك يوم ينادي الله فيه آدم فيناديه ربه فيقول يا آدم : ابعث بعث النار فيقول : أي رب وما بعث النار فيقول: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة فيئس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة ، فلما رأى الذي بأصحابه قال : اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم وبني إبليس فسري عن القوم بعض الذي يجدون قال : اعملوا وابشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة) .

من هذا الحديث نفهم أن يأجوج ومأجوج يشكلان نسبة كبيرة من سكان الأرض ، مما دعا البعض إلى أن يتصور أنهم من العرق الأصفر من صينيين وغيرهم ، أو العرق الأصفر والعرق الآري كله . والأمر بعد ذلك وقبله إلى الله هو أعلم بهم ، كل ما في الأمر أن من

---

(١) يروي بعض من زار الصين من معاصرينا أن الناس هناك حدثوهم أنه يوجد عندهم قبيلتان تسميان: يأجوج ومأجوج وهما موجودتان الآن .

علامات الساعة أن يأجوج ومأجوج ستكتسحان أرضنا حتى فلسطين في زمن المسيح ثم يقضي الله عليهم .

أما الدجال فهو أعظم فتنة تظهر على الأرض منذ خلق الله الخليقة حتى قيام الساعة ، إذ أنه رجل يدّعي الألوهية ، ويظهر الله على يده خوارق عادات تكون بمثابة إشعار للجاهلية بأن لهذا قدرة مطلقة ، فما لم يعتصم الإنسان بالوحي الصادق في شأنه ، والعقل البصير الذي يعرف به جلال الله ، وأنه لا يمكن أن يكون الله هو هذا الإنسان الأعور الناقص فإن الإنسان يضل .

وهذه بعض نصوص وردت في أمر هذه العلامات الثلاث للساعة :

روى مسلم عن رسول الله (ما من خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال) .

وفي رواية (أمر أكبر من الدجال) .

وروى الشيخان وأبو داود والترمذي عن رسول الله ﷺ : (إن الله ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينيه عنبة طافئة) وفي رواية (تعلمون أنه ليس يرى أحد منكم ربه حتى يموت وأنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه من كره عمله) .

وللترمذي وابن ماجه والحاكم عن أبي بكر عن رسول الله ﷺ :

(الدجال يخرج من أرض بالمشرق يقال لها خراسان يتبعه أقوام كأن وجوههم المجان المطرّقة) حسن غريب .

ولمسلم عن رسول الله ﷺ (يتبع الدجال من يهود أصفهان سبعون ألفاً عليهم الطيالسة) .

ولمسلم والترمذي : (ليفر الناس من الدجال في الجبال قلت يا رسول الله فأين العرب يومئذ قال : هم قليل . وللشيخين عن أبي سعيد (حدثنا النبي ﷺ عن الدجال فكان فيما حدثنا به أن قال : يأتي الدجال وهو محرّم عليه أن يدخل نقاب المدينة فينتهي إلى بعض السباخ التي بالمدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس فيقول اشهد أنك الدجاك الذي حدثنا عنه رسول الله ﷺ حديثه فيقول الدجال : أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحييته هل تشكون في الأمر ؟ فيقولون لا فيقتله ثم يحييه فيقول حين يحييه والله ما كنت قط أشد بصيرة مني اليوم فيقول الدجال اقتله فلا يسلط عليه . وفي رواية بنحوه وفيه قول الرجل : هذا الدجال الذي ذكر رسول الله ﷺ فيأمر به فيشج فيقول خذوه واشبحوه فيوسع ظهره وبطنه ضرباً فيقول : أما تؤمن بي ؟ فيقول : أنت المسيح

الكذاب فيؤمر به فيؤشر بالمنشار من مفرقه حتى يفرق بين رجليه ثم يمشي الدجال بين قطعتيه ثم يقول له قم فيستوي قائماً ثم يقول له : أتؤمن بي ؟ فيقول : ما ازددت فيك إلا بصيرة ثم يقول يا أيها الناس : إنه لا **يفعل بعد بأحد** من الناس فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل ما بين رقبته وترقوته نحاساً فلا يستطيع إليه سبيلاً فيأخذ بيديه ورجليه فيقذف به فيحسب الناس إنما قذفه الى النار وإنما ألقي في الجنة فقال ﷺ هذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين) .

وللشيخين وأبي داود عن حذيفة عن رسول الله ﷺ :

(لأنا أعلم بما مع الدجال منه معه نهران يجريان أحدهما رأي العين ماء أبيض والآخر رأي العين نار تأجج فأما أدرك أحد فليأت النهر الذي يراه ناراً وليغمض ثم ليطأطيء رأسه فيشرب منه فانه ماء بارد وان الدجال ممسوح العين عليها ظفرة غليظة مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب) .

وللشيخين وأبي داود والترمذي عن رسول الله ﷺ :

(ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب إلا أنه أعور وأن ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه ك ف ر) .

ولمسلم وأبي داود والترمذي عن النواس بن سمعان :

ذكر النبي ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل ، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال ما شأنكم ؟ قلنا يا رسول الله ذكرت الدجال غداة فخفضت فيه ورفعت حتى ظنناه في طائفة النخل فقال غير الدجال أخوفني عليكم إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه والله خليفتي على كل مسلم . إنه شاب قطط عينه طافية كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف فإنه خارج خلة بين الشام والعراق فعاث يميناً وعاث شمالاً . يا عباد الله فاثبتوا قلنا يا رسول الله : فما لبثه في الأرض؟ قال أربعون يوماً ، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم قلنا يا رسول : فذاك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم ؟ قال لا أقدروا له قدره . قلنا يا رسول الله : وما إسراعه في الأرض ؟ كالغيث استدبرته فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت ، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ورا

وأشبعه ضروعاً وأمده خواصر ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم ويمر بالخربة فيقول لها أخرجي كنوزك فتتبعه كنوزها كيعاسيب النخل ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رمية الغرض ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه ويضحك فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح بن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر وإذا رفعه تحدر منه جمان اللؤلؤ . فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه . فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله ثم يأتي عيسى قوم قد عصمهم الله منه فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة فبينما هو كذلك إذ أوحى الله تعالى الى عيسى :

إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي الى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مئة دينار لأحدكم اليوم فيرغب عيسى وأصحابه الى الله جل وعلا . فيرسل عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة .

ثم يهبط عيسى وأصحابه الى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم ، فيرغب عيسى وأصحابه الى الله تعالى . فيرسل طيراً كاعناق البخت فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله ثم يرسل الله مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة . ثم يقال للأرض انبتي ثمرتك وردي بركتك فيومئذ تاكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها ويبارك الله في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس . فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن ومسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة .

وفي رواية بعد قوله : لقد كان بهذه مرة ماء ، ثم يسيرون حتى ينتهوا الى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس فيقولون لقد قتلنا من في الأرض فلنقتل من في السماء فيرمون نشابهم الى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماء .

. . . . . .

هذه خمسة علامات من أكبر علامات الساعة وأشراطهـا ، وهناك مئات العلامات الأخرى وردت في السنة ، رأينا نماذج مما وقع منها ، أو يقع الآن في فصل النبوءات من كتاب / الرسول / وبعضها لم يقع وبعض الناس تغلب عليه أغلاط في فهم بعض هـذه العلامات أو في تقدير وقتها .

إذ أن منها ما يكون قرب الساعة بقليل جداً قبل المسيح بسنوات أو معه ، ومنهـا ما يكون قبل ذلك بكثير جداً فيغلطون بالجمع بينهما ، ومنها مالا تدل عليه المقدمـات الحاضرة فيغلطون في تأويلها ، ومنها ما جعلهم عصرنا الحاضر ومخترعاته يفهمونهـا فهماً عادياً وهي خوارق ، ومنها ما هو دليل على الخيرية يظنونه مذموماً .

فمثلاً يظن الناس أن الدين إلى انحسار حتى خروج المهدي ، مع أن المهدي قبل عيسى بقليل ، وقبل ذلك يعم الإسلام العالم ، وتفتح روما . والقسطنطينية اليوم مسلمة وكانت كافرة ففتحت ، وقد أخبر الرسول ﷺ بالفتح الأول ولكن يبدو أن القسطنطينية سترجع كافرة مرة ثانية ، وتفتح من جديد ، وفتحها الثاني يكون قبيل المسيح بقليل ، والناس لا يفرقون بين فتحها الأول والثاني ، والظاهر كما أن مدنيات قديمة كثيرة قد اندرست على مر العصور ، فإن مدنيتنا الحاضرة لن تستمر إذ أن النصوص الكثيرة تفيد أن الناس قبل قيام الساعة لن يكونوا على شيء من العلم ، وهـذا يؤكد أن بيننا وبين القيامة شيئاً من الفترة الزمنية الله أعلم به ولكن أشراطاً كثيرة وردت في السنة الثابتة لم تقع ويبدو أن وقوعها يحتاج إلى زمان طويل والمسألة بعد ذلك كله هكذا :

ما ورد من علامات الساعـة إن كان وقع فهو معجزة وقد رأينا نماذجه في بحث النبوءات .

وما ورد من علاماتها مما لم يقع فالإيمان به واجب والله أعلم بزمان وظروف وكيفية وقوعه .

ولن تقوم الساعة حتى تستنفذ علاماتها وأشراطها التي وردت في الكتاب والسنة وشيء ننبه إليه هو ألا يدفعنا واقع عصرنا إلى تأويل شيء من علامات الساعـة التي لم تقع لأن واقع عصرنا وما فيه قد ينتهي بحرب ذرية تعود الإنسانية فيها الى بدايتها الأولى ولا يبقى فيها إلا الجاهلون .

رأينا أن هناك دنيا وأخرى وأن الحد الفاصل بينهما هو قيام الساعة ورأينا شيئاً من أشراط الساعة والآن نحب أن نذكر هنا ما هو وضع الإنسان قبل الساعة وبعد الموت ؟

نريد أولاً وقبل الجواب عن السؤال الآنف أن نشير الى نواح :

أ – العوالم التي يمر بها الإنسان هي :

١ – عالم البطن .

٢ – عالم الحياة الدنيا .

٣ – عالم البرزخ وهو عالم ما بعد الموت .

٤ – عالم اليوم الآخر وهو عالم ما بعد الساعة .

وكل عالم لاحق أوسع من العالم السابق ويختلف عنه نوع اختلاف ، وتختلف كذلك القوانين التي تنطبق عليه . فالإنسان في بطن أمه لا يتنفس ولا يأكل من فيه ويكون في الغالب رأسه إلى الأسفل على عكس ما يكون في الحياة الدنيا ، والحياة الدنيا أوسع من البطن للإنسان ، وعالم البرزخ أوسع من عالم الدنيا لأنه جزء من الآخرة ، وعالم الآخرة أوسع العوالم على اعتبار أن الإنسان فيه يكشف له عالم الغيب ويعيش فيه .

وعالم الحياة الدنيا يرى فيه الإنسان صورة مصغرة عن عالم البرزخ في النوم ، وفي عالم البرزخ يستشرف الإنسان على الآخرة ، فكل عالم يعيش فيه الإنسان يكون مقدمة لغيره ، ويرى الإنسان فيه صورة مصغرة عنه

وبحثنا هنا له علاقة بعالم البرزخ ، وهو عالم ما بعد الحياة الدنيا وما قبل الآخرة : إننا نأخذ صورة مصغرة عن هذا العالم فى الحياة الدنيا أثناء نومنا. ففي النوم نرى أنفسنا نتعذب أو ننعم أو نجوع أو نعرى أو نَضْرِب أو نُضرَب وقد يظهر آثار ذلك على الجسم كما تواترت بذلك حوادث هذا الذي نشاهده في النوم شبيه بما نراه أمامنا بعد الموت ولكن بصورة أخرى أكثر وضوحاً ، وفي حالة يكون ارتباط الروح بالجسد فيها مختلفاً وأكثر ضعفاً ، ولكن ليس مثل عالم الرؤيا يوضح لنا عالم البرزخ ، ولذلك وجد أكثر من نص عبّر عن النوم بلفظ الموت ، أو شبه به من أجل ذلك قوله عليه السلام (النوم أخو الموت) .

ب – مر معنا في بحث / الرسول / ﷺ معان كلها تشير إلى عالم الروح كظاهرة الأحلام والتنويم المغناطيسي والتلباثي وما إلى ذلك ،وأكدنا هناك إلى أن المصدر الوحيد الذي يجوز أن نتلقى منه ما له علاقة بعالم الغيب خاصة هو رسول الله ﷺ إذ هو المصدر الوحيد الثقة المعصوم عن الخطأ في هذا الموضوع وغيره « ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى أفتمارونه على يرى » .

« وما هو على الغيب بضنين» أي بمتهم .

والذي نريد أن نذكره هنا هو أنه لما كانت عوالم الغيب جزءاً من العقيدة فلا بد أثناء الحديث عنها من الاحتياط الكثير ، فلا نورد نصاً إلا إذا صحت نسبته لرسول الله ﷺ صحة كاملة .

ج – كنا ذكرنا سابقاً أنه لا مانع من أن يجتمع في القضية الواحدة سببان : أحدهما حسي ، والآخر غيبي ، وإثبات أحدهما لا يعني نفي الآخر،والجميع بقدرة الله عز وجل، وإثبات هذا كذلك لا يعني نفي السببين ، وأكثر ما يتجلى هـذا في الموت . فقد يكون الموت سبب حسي هو المرض ، وله حتماً سبب غيبي هو سحب الروح من الإنسان بواسطة الملك ، وهذا وهذا بقدرة الله .

« قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » « توفته رسلنا وهم لا يفرطون » .

« الله يتوفى الأنفس حين موتها » .

د – المسألة بالنسبة لعالم الغيب تختلف منهـا عن عالم الشهادة . فالأشياء التي تتصور غريبة بالنسبة لنا في عالم الشهادة نتيجة للقوانين التي تحكمنا تصبح عادية في عالم الغيب ، فإذا تصورنا طبيباً لا يستوعب إلا مريضاً ، فلا يخطرن بالبال أن ملكاً لا يستوعب إلا إنساناًواحداً ، هذا جهل بعالم الغيب لا يقول به إلا إنسان ما عرف عالم الغيب .

إن قدرة الله مطلقة ، وإذا سلط مخلوقاً على شيء استوعبه ، وعالم الغيب عالم عجيب لا نعرف عنه إلا ما أخبرنا بواسطة الوحي الصادق،وليس لنا معه إلا الإيمان والتصديق ، دون القياس والتجريب ، لأن المسألة خارجة عن قوانين عالمنا الحسي .

. . . . . .

بعد هذه المقدمة ننقل بعض النصوص الواردة عما له علاقــة بالإنسان من الموت إلى الساعة :

أ – روى مسلم وأصحاب السنن عن أم سلمة :

(دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة وقد شق بصره فأغمضه ثم قال : إن الروح إذا قبض تبعه البصر ..)

ب – روى النسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ :

(إذا احتضر المؤمن أتت ملائكة الرحمة بحريرة بيضاء فيقولون اخرجي راضية مرضياً عنك إلى روح الله وريحان ورب غير غضبان فيخرج كأطيب ريح المسك حتى إنه ليناوله بعضهم بعضاً حتى يأتوا به أبواب السماء فيقولون مـــا أطيب هذه الريح التي جاءتكم من الأرض فيأتون به أرواح المؤمنين فهم أشد فرحاً به من أحدكم بغائبه فيقدم عليه فيسألونه ماذا فعل فلان ماذا فعل فلان ؟ فيقولون دعوه فإنه كان في غم الدنيا فيقول قد مات أما أتاكم ؟ قالوا ذهب به إلى أمه الهاوية . وإن الكافر إذا احتضر أتته ملائكة العذاب بمسح فيقولون اخرجي ساخطة مسخوطاً عليك إلى عذاب الله فتخرج كأنتن ريح جيفة حتى يأتوا به باب الأرض فيقولون ما أنتن هذه الريح حتى يأتوا به أرواح الكفار) .

جـ – (روت عائشة / رضى / عن رسول الله ﷺ : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه قلت يا نبي الله أكراهية الموت ؟ قال ليس كذلك ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله فأحب الله لقاءه وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله فكره الله لقاءه .للشيخين والترمذي والنسائي) .

(وفي رواية : بعد كره الله لقاءه : والموت قبل لقاء الله) .

(وفي أخرى : قالت إذا شَخِصَ البصر وحَشْرَجَ الصدر واقشعر الجلد وتشنجت الأصابع فعند ذلك من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه).

د – (روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ : إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على أعناقهم فإن كانت صالحة قالت قدموني وإن كانت غير ذلك قالت : : ويلها أين تذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الثقلين أو قال الإنسان ولو سمع الإنسان لصعق . للبخاري ومسلم) .

هـ - (وروى أنس عن رسول الله ﷺ : إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه إنه ليسمع خفق قرع نعالهم إذا انصرفوا أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد ؟ فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال له انظر الى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة فيراهما جميعاً وأما الكافر والمنافق فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال له لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين) . للشيخين وأبي داود والنسائي .

و - (روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير فيقولان ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول ما كان يقول هو عبدالله ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول هذا ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ثم ينور له فيه ثم يقال له نم فيقول أرجع الى أهلي فأخبرهم فيقولان نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . وإن كان منافقاً قال سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله لا أدري . فيقولان قد كنا نعلم أنك تقول ذلك فيقال للأرض التئمي عليه فتلتئم عليه فتختلف أضلاعه فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك) .

وزاد في الأوسط : إن المؤمن تكون الصلاة عند رأسه والزكاة عن يمينه والصوم عن شماله وفعل الخير والمعروف عند رجليه فيؤتى من قبل رأسه فتقول الصلاة ليس من قبلي مدخل وكذا من كل جهة يقول الذي فيه ليس من قبلي مدخل) .

ز - (روى هانيء مولى عثمان : قال كان عثمان إذا وقف على قبر بكي حتى يبل قيل له تذكر الجنة والنار ولا تبكي وتذكر القبر فتبكي فقال : اني سمعت رسول الله ﷺ يقول : القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجى منه فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه قال وسمعته ﷺ يقول ما رأيت منظراً قط إلا القبر أفظع منه) .

وزاد رزين : قال هانيء وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا

ح (روى ابن عباس : مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ثم قال بلى أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله ثم دعا بعسيب رطب فشقه اثنين فغرس على هــذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال لعله يخفف عنهما ما لم ييبسا . للستة إلا مالكاً) .

ط – (وعن عائشة عن رسول الله ﷺ : إن للقبر ضغطة لو كان أحد ناجياً منهـا نجا منها سعد بن معاذ) . لأحمد .

ي – (عن ابن عباس : أن النبي ﷺ يوم دفن سعد بن معاذ وهو قاعد على قبره قال لو نجا أحد من فتنة القبر أو مسألة القبر لنجا سعد بن معاذ ولقد ضم ضمة ثم أرخى عنه) للطبراني في الكبير والأوسط .

ك – قال الله تعالى . « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعـة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب) .

ل – وقال : « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تُفتَّحُ لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سَمّ الخياط وكذلك نجزي المجرمين » .

م – (عن سلمان عن رسول الله ﷺ : رباط يوم في سبيــل الله خير من صيام شهر وقيامه ومن مات مرابطاً وقي من فتنة القبر ونمي له عمله الى يوم القيامة) . لمسلم والنسائي والترمذي بلفظه .

ن – (قال مسروق : سألنا عبدالله عن هذه الآية«ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً » فقال إنا سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال : أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي الى تلك القنـاديل فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث شئنا ففعل ذلك ثلاث مرات فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا) . لمسلم والترمذي وزاد : وتقرىء نبينا السلام وتخبره أن قد رضينا ورضي عنا ..

ص – (عن أنس عن رسول الله ﷺ : ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا

وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد يتمنى أن يرجع الى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى في فضل الشهادة) . للشيخين والترمذي والنسائي .

ع - (روى عوف بن مالك : صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظنا من دعائه اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله داراً خيراً من داره وأهلا خيراً من أهله وزوجاً خيراً من زوجه وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار قال عوف حتى تمنيت أن أكون ذلك الميت) للترمذي والنسائي ومسلم بلفظه .

ف - (روى أنس عن رسول الله ﷺ : اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل وأعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات) . للستة إلا مالكاً .

ص - (روت عائشة / رض / عن رسول الله ﷺ : اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم والمغرم ومن فتنة القبر وعذاب القبر ومن فتنة النار وعذاب النار ومن شر فتنة الغنى ومن شر فتنة القبر وأعوذ بك من شر فتنة المسيح الدجال. اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد ونق قلبي كما نقيت الثوب الأبيض وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب) . للستة إلا مالكاً .

والمسألة بعد هذا كله مسألة إيمان وعمل ، وليست مسألة تحتاج الى فلسفة أو أسئلة . من آمن بالله ورسوله – ولماذا لا يؤمن – عرف أن الله لا يعجزه شيء ، وتلقى الأمر كما هو ولم يحتج إلى سؤال كثير في شئون هي لغير عالمنا، وما نرى المسلمين بحثوا في هذه الشؤون وتوسعوا فيها وأكثروا من تفريعات مسائلها ومناقشة أمورها إلا يوم ضعف في نفوسهم اليقين ، وقوي الشك ، وعمت الشبه ، وليس علاج ذلك في هذا ، وإنما علاجه بمعرفة الله ومعرفة رسوله ﷺ فمن عرف لزم الباب ، ولم يحتج الى جواب على أشكال لأنه لا إشكال وقتذاك إلا في كلمة لم يعرف معناها أو نص استعصى على فهمه إدراك مراد الشارع فيه .

إن مثلنا ومثل الصحابة في هذه الأمور كمثل أمتين هددتا بخطر ، فأمة عرفت الخطر وسعت لتلافيه ، وأمة شكت وفتشت وتساءلت وناقش أفرادها بعضهم بعضاً حتى داهمهم الأمر وهم على غير استعداد فدمروا .

فيا أيها الناس : ما كان من أمر الغيب وقد أخبرنا عنه خبراً صحيحاً عن رسول الله ﷺ فلنفهمه ونؤمن به ولنسلم الأمر فيه ذلك مقتضى الإيمان وذلك الطريق الأقوم .

. . . . . .

على أن الباحث العالم المنصف يرى في كل شيء ما يزيد اليقين :

لئن كانت بعض قضايا البرزخ يسمعها الحيوان ولا يسمعها الإنسان فقد ثبت علمياً أن الإنسان لا يسمع الصوت إلا إذا كان ضمن ذبذبة معينة ، فإذا زاد على ذلك أو نقص لم يعد يسمع بينما آذان الحيوانات لا تنطبق عليها نفس القاعدة كما تنطبق على الإنسان ، ومن شاهد الخيل عند قربها من قبر يلاحظ كيفية إصغائها .

ومن تتبع أحوال الموتى عند الموت وراقب وجوههم وأوضاعهم وأحوالهم رأى الفارق الكبير بين أوضاع المسلمين الصالحين وأوضاع الآخرين يظهر هذا على وجوههم قبل الموت وبعده .

ومن درس أحوال العباد والزهاد والصالحين والذاكرين من المسلمين عرف من أحوال الكثير منهم كيف أنهم يشاهدون بعض الأمور البرزخية وقد ورد في حديث الرسول ﷺ : (لولا تمرغ قلوبكم وتزيدكم في الحديث لسمعتم ما أسمع) أي من عذاب القبر لأن الأثر ورد فيه .

ومن تتبع قصص من لم تأكل الأرض جثته من المسلمين ولو بعد عشرات من السنين أو مئات من يوم دفنه لرأى العجب قديما وحديثاً ، ولعل من أعجب ذلك وأبدهه وما يستطيع كل إنسان أن يتحقق منه ميت في حي الأكراد في دمشق ترى رجله خارجة من القبر لم تتغير ولم تتبدل ويستطيع أي إنسان أن يراها مع أنه مضى على دفنه مئات السنين وما من بلد إسلامي إلا ويروي لك أهله حوادث من هذا النوع شاهدوها أو سمعوا من شاهدها . وفي حوادث السيرة من ذلك الكثير ، وكم قبر حفر ففاح من أرضه عبير عجيب وهذه قضايا لا نقولها رجماً بالغيب ولكن نستطيع أن نأتي عليها بأوثق الشهود ومن تتبع حوادث توجيهات الموتى الصالحين للأحياء أو إنذارهم في الرؤى والمنامات ووقوع كثير من النذر كما أنذروا يرى من ذلك الكثير العجيب .

نواح كثيرة تزيد الإيمان ولكن من لم يكتف بقول رسول الله ﷺ في أي شيء فهو

بحاجة إلى تجديد إيمانه برسول الله وبالله وليكثر من قراءة القرآن فإنه لا شك مريض والقرآن شفاء لما في الصدور .

. . . . . .

- ٧ -

بعد هـذا نصل إلى الحديث عن اليوم الآخر . والحديث عن ذلك ينقسم إلى قسمين الحديث عن الجنة والنار ودخول أهلها إليها وما يكون قبل ذلك. وفي تسلسل الأحداث من بدء الساعة إلى دخول أهل الجنة الجنة وأهل النار النار بعض خلاف والسر في هـذا الخلاف أن كلمات النصوص أحيانا تحتمل أكثر من معنى ، والقضية غيبية لا تُعرف بغير الوحي أو المعاناة وفي القضايا الغيبية متى فُقِد النص وجد الخلاف إذا حدث الخوض . ولذلك فنحن في هـذه الفقرة سنقتصر على ذكر النصوص وعلى شرح بعض المفردات وسنجعل هذه النصوص تحت عنوانين :

الأول ؟ من بدء الساعة حتى الجنة والنار .

الثاني : وصف الجنة والنار وما لأهلها فيها .

ونؤثر أثناء الدراسة والبحث عدم السؤال والتفصيل لأن هذه القضايا للإيمان والعبرة والعمل وكلما كان الإنسان أكثر علماً كان أكثر وقوفاً على النص وإيماناً به . ولنبدأ بعرض الموضوع .

أ ـ من الساعة حتى الجنة والنار

١ – قال تعالى « ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون .. »

للستة إلا الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

(ما بين النفختين أربعون قيل أربعون يوماً ؟ فقال أبو هريرة : أبيت.. قالوا أربعون شهراً ؟ قال أبيت . قالوا : أربعون سنة ؟ قال أبيت .. ثم ينزل من السماء ماءاً فينبتون كما ينبت البقل وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظم واحد وهو عجب الذنب منه يركب الخلق يوم القيامة) .

قال تعالى « ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنـا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » .

٢ – « يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » .

« إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها . يومئذ تحدّث أخبارها ، بأن ربك أوحى لها . يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

« ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفاً فيذرها قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً » والأمت هو النتوء اليسير .

« يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » .

« إذا وقعت الواقعة ، ليس لوقعتها كاذبة ، خافضة رافعة ، إذا رجت الأرض رجا ، وبست الجبال بسا فكانت هباءاً منبثا » البس الفت والهباء المنبث هو الغبار المنتشر .

« فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان » أي حمراء .

« يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا » .

« فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر ، يقول الإنسان يومئذ أين المفر » .

« إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت ، وإذا العشار عطلت ، وإذا الوحوش حشرت ، وإذا البحـار سجرت ، وإذا النفوس زوجت ، وإذا الموؤدة سئلت بأي ذنب قتلت ، وإذا السماء كشطت ، وإذا الجحيم سعرت ، وإذا الجنة أزلفت ، علمتْ نفس ما أحضَرت . . »

« إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت علمت نفس ما قدمت وأخرت » .

« إذا السماء انشقت ، وأذنت لربها وحُقت ، وإذا الأرض مدت وألقت ما فيهـا وتخلت وأذنت لربها وحقت » .

٣ – روى الشيخان عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال :
يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كفرصة النقر ليس فيها علم لأحد.

روى ابن عباس عن رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة عراة غرلاً أول الخلق يكسى إبراهيم الخليل ثم قرأ « كما بدأنا أولَ خلق نعيده » وفي رواية (تحشرون حفاة عراة غرلاً فقالت امرأة أيبصر بعضنا عورة بعض ؟ قال يا فلانة لكل منهم يومئذ شأن يغنيه) للشيخين والترمذي والنسائي .

روى أنس (أن رجلاً قال يا رسول الله .. قال الله تعالى «الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم » أيحشر الكافر على وجهه ؟ قال أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة) للشيخين .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف : صنفاً مشاة وصنفاً ركبانا وصنفاً على وجوههم قيل يا رسول الله:وكيف يحشرون على وجوههم قال : إن الذي أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك) . للترمذي .

وعنه عن رسول الله ﷺ (يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة طرائق راغبين وراهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل معهم حيث قالوا وتبيت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث امسوا رواه الشيخان والنسائي .

٤ — « تعرج الروح والملائكة إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فاصبر صبراً جميلاً إنهم يرونه بعيدا ونراه قريباً يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميم حميا » .

« ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

روى الشيخان والترمذي عن ابن عمر وتلا « ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين » فقال يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه ..

روى المقداد عن رسول الله ﷺ (تدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل قال سليم بن عامر : فوالله ما أدري ما يعني بالميل أمسافة الأرض أو الميل الذي يكتحل به العين قال فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق فمنهم من يكون إلى كعبه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى لقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً وأشار ﷺ بيده إلى فيه ..) لمسلم والترمذي .

وروى الشيخان عن رسول الله ﷺ (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله

الإمام العادل وشاب نشأ في عبادة الله ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه. ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه) .

روى أبو سعيد (قيل يا رسول الله يوم كان مقداره خمسين ألف سنة فما أطول هـذا اليوم فقال ﷺ والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون عليـــه أخف من صلاة مكتوبة يصليها في الدنيا) لأحمد والموصلي .

٥ ــ قال تعالى « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا » .

« ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ، إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ، وجاءت كل نفس معهـــا سائق وشهيد ، لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد ، وقـال قرينه هذا ما لدي عتيد » .

« فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة ، وحُملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعه ، وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائهـا ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ، يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية ، فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرأوا كتابيه ، إني ظننت أني ملاق حسابيه ، فهو في عيشة راضية ، في جنة عالية قطوفها دانية ، كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ، وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوتَ كتابيه ، ولم أدر ما حسابيه ، يا ليتها كانت القاضية ، ما أغنى عني ماليه ، هلك عني سلطانيه ، خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ههنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون » .

« يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه ، فأما من أوتي كتابـه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ، وأما من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يدعوا ثبورا ، ويصلى سعيراً ، إنه كان في أهله مسرورا ، إنه ظن أن لن يحور ، بلى إن ربه كان بـه بصيرا » .

« هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

٦) قال عليه السلام (من نُوقِش الحساب عُذّب . قالت عائشة أليس يقول الله : وأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً) فقال إن ذلك العرض وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك) . وفي رواية وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عُذّب) للشيخين وأبي داود والترمذي .

قال تعالى : « ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون ، حتى إذا جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

روى أنس (كنا عند النبي ﷺ فضحك فقال هل تدرون لم أضحك؟ قالوا الله ورسوله اعلم قال من مخاطبة العبد ربه فيقول يا رب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فإني لا أجيز اليوم على نفسي شاهداً إلا مني فيقول كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً والكرام الكاتبين شهوداً فيختم على فيه ويقول لأركانه انطقي فتنطق بأعماله ثم يخلي بينه وبين الكلام فيقول : بعداً لكنّ وسحقاً فعنكن كنت أناضل) لمسلم .

روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه وماذا عمل فيما علم) .

وروى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ (أول ما يحاسب عليه العبد الصلاة وأول ما يقضى بين الناس في الدماء) للشيخين والترمذي والنسائي بلفظه .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (من كانت عنده مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء منه فليحلله منه اليوم من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه ..)

روى البخاري عن قتادة عن صفوان بن محرز : أن رجلاً سأل ابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى قال يدنو أحدكم من ربه حتى يضع **كتفه** عليه فيقول أعملت كذا وكذا ؟ فيقول نعم ويقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقرره ثم يقول إني

سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) .

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال : (أتدرون ما المفلس ؟ قالوا المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع قال إن المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم يطرح في النار) .

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : (لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء) لمسلم والترمذي .

وروى أبو أمامة عن رسول الله : (وعدني ربي أن يُدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب ومع كل ألف سبعون ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي) .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ : (يدخل الجنة من أمتي زمرة سبعون ألفاً تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر فقام عكاشة بن محصن الأسدي فرفع نمرةعليه فقال يا رسول الله .. أدع لله أن يجعلني منهم قال اللهم اجعله منهم ثم قام رجل من الأنصار فقال يا رسول الله أدع لله أن يجعلني منهم قال سبقك عكاشة) للشيخين .

٧ — « ونضع الموازين القسطَ ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقالَ حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين .. »

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

« وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً » .

روى الترمذي عن عائشة (رض) : (أن رجلاً قال يا رسول الله .. إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم فقال النبي ﷺ إذا كان يوم القيامة يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً لا لك ولا عليك وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتضى لهم منك الفضل . فتنحى الرجل وجعل يهتف ويبكي .. فقال له ﷺ أما تقرأ قول الله تعالى : « ونضع الموازين القسطَ ليوم القيامة إلى .. حاسبين » فقال الرجل يا رسول الله مـا أجد لي ولهؤلاء شيئاً خيراً من مفارقتهم أشهدك أنهم كلهم احرار ..)

٨ – وروى الترمذي عن رسول الله ﷺ لما نزلت « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم » قال أتدرون أي يوم ذلك ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال ذلك اليوم ينادي الله فيه آدم فيناديه ربه فيقول يا آدم ابعث بعث النار فيقول أي رب وما بعث النار ؟ فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد الى الجنة فيئس القوم حتى ما أبدوا بضاحكة فلما رأى الذي بأصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج ومن مات من بني آدم وبني إبليس فسري عن القوم بعض الذي يجدون قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفس محمد بيده ما أنتم في الناس إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقمة في ذراع الدابة ..)

٩ – روى أبو سعيد : قلنا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال نعم فهل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحاب ؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحاب ؟ قالوا لا يا رسول الله . قال فما تضارون في رؤية الله يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما . إذا كان يوم القيامة أذّن مؤذن لتَتْبَع كل أمة ما كانت تعبد فلا يبقى أحد كان غير الله من الأصنام والأنصاب **إلا يتساقطون** في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر غير أهل الكتاب فيدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ قالوا نعبد عزير بن الله . فيقال كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد فماذا تبغون ؟ قالوا عطشنا يا رب فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون ؟ فيحشرون إلى النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار . ثم تدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ قالوا كنا نعبد المسيح بن الله فيقال لهم كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد . فماذا تبغون ؟ فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا فيشار إليهم ألا تردون؟ فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر أتاهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها قال فما تنتظرون ؟ تتبع كل أمة ما كانت تعبد قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين أو ثلاثاً حتى إن بعضهم يكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آية تعرفونه بها ؟ فيقولون نعم فيكشف عن ساق فلا يبقى من كان يسجد لله مرة اتقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة كلما أراد أن يسجد خر على قفاه . ثم يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته التي رأوه فيها أول مرة فيقول

أنا ربكم ؟ فيقولون أنت ربنا ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم قيل يا رسول الله وما الجسر ؟ قال : دحض مزلة ، فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار فيقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقاً كثيراً قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فاخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحداً مما أمرتنا . ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فاخرجوه فيخرجون خلقاً كثيراً ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيراً . وكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرؤوا إن شئتم « إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً » فيقول الله تعالى شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط قد عادوا حمماً فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض فقالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبداً ..)

وروى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ (إن من أمتي من يشفع للفئام من الناس ومنهم من يشفع للقبيلة ومنهم من يشفع للعصبة ومنهم من يشفع للواحد حتى يدخلوا الجنة) .

وروى عبدالله بن أبي الجدعاء عن رسول الله ﷺ (يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتي أكثر من بني تميم قلنا سواك يا رسول الله ؟ قال نعم سواي) .

روى أنس (سألت رسول الله ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة قال أنا فاعل إن شاء الله قلت فأين أطلبك ؟ قال أول ما تطلبني على الصراط قلت فإن لم ألقك على الصراط ؟ قال فاطلبني عند الميزان قلت فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال فاطلبني عند الحوض فإني لا أخطيء هذه الثلاثة مواطن) .

روى المغيرة عن رسول الله ﷺ (شعار المؤمنين على الصراط يوم القيامة سلم سلم).

قال تعالى : « فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنُحضرنهم حول جهنم جِثِيًّا ، ثم لننزعَنَّ من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عِتِيًّا ، ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صِلِيًّا ، وإنْ منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضيا ، ثم نُنَجّي الذين اتقَوا ونذرُ الظالمين فيها جِثِيًّا ..)

١٠ — روى سمرة عن رسول الله ﷺ (إن لكل نبي حوضاً ترده أمته وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني لأرجو أن أكون أنا أكثرهم واردة) . للترمذي .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (ترد عليّ أمتي الحوض وأنا أذود الناس عنه كما يذود الرجل إبل الرجل عن إبله قالوا يا نبي الله تعرفنا ؟ قال نعم لكم سيما ليست لأحد غيركم تردون عليّ غراً محجلين من آثار الوضوء ولتُصَدَّن عني طائفة منكم فلا يصلون فأقول يا رب هؤلاء من أصحابي فيجيبني ملك فيقول وهل تدري ما أحدثوا بعدك) . للشيخين .

روى أنس عن رسول الله ﷺ (ليردن عليّ الحوض رجال حتى إذا رفعوا إلي اختلجوا دوني فلأقول أي رب أصحابي أصحابي فليقولن لي إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك).

روى أبو ذر (قلت يا رسول الله ما آنية الحوض ؟ قال والذي نفسي بيده لآنيته أكثر من عدد النجوم في السماء وكواكبها في الليلة المظلمة المصحية فيه ميزابان من الجنة من شرب منه لم يظمأ . عرضه مثل طوله ما بين عمان إلى أيلة وماؤه أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل) . للترمذي ومسلم .

روى أبو طالوت (أن أبا برزة الأسلمي دخل على عبدالله بن زياد فلما رآه قال إن محمديكم هذا لدحداح ففهمها الشيخ فقال ما كنتُ أحسب أن أبقى في قوم يعيرونني بصحبة محمد ﷺ فقال له عبدالله إن صحبة محمد لكم زين غير شين قال إنما بعثت إليك لأسألك عن الحوض هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر فيه شيئاً ؟ قال أبو برزة نعم لا مرة ولا

مرتين ولا ثلاثاً ولا أربعاً ولا خمساً فمن كذب به فلا سقـاه الله منه ثم خرج مغضباً) . لأبي داود .

١١ – روى جابر عن رسول الله ﷺ (يخرج من النار قوم بالشفاعة كأنهم الثعارير قلنا وما الثعارير قال الضغابيس) للشيخين .

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون ولا يحيون ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم أو قال بخطاياهم فأماتتهم إماتـة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهـــار الجنة ثم قيل يا أهل الجنة أفيضوا عليهم فينبتون نبات الحبة في حميل السيل فقال رجل من القوم كأن رسول الله ﷺ قد كان بالبادية) لمسلم .

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ (يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا) للبخاري .

روى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ (إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله تعالى له اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول يا رب وجدتها ملأى فيقول الله اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو أن لك مثل عشرة أمثال الدنيا فيقول أتسخر بي أو تضحك بي وأنت الملك ؟ فلقد رأيت رسول الله ضحك حتى بدت نواجذه . فكان يقول ذلك أدنى أهل الجنة منزله) للشيخين والترمذي .

وروى ابن مسعود عن رسول الله ﷺ (آخر من يدخـل الجنة رجل فهو يمشي مدة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة فإذا جاوزها التفت إليها فقال تبارك الذي نجاني منك لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين فترفع له شجرة فيقول يا رب أدنني من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها فيقول الله تعالى : لعلي إن أعطيتكهـا تسألني غيرها فيقول لا يا رب ويعاهده أن لا يسأله غيرها وربه تعـالى يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه فيدنيه منهـــا فيستظل بظلها ويشرب من مائها ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولى فيقول أي ربي أدنني من هذه الشجرة لأشرب من مائها وأستظل بظلهـا

لا أسألك غيرها فيقول يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها؟ فيقول لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها فيعاهده أن لا يسأله غيرها وربه تعالى يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه . فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها . ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأولين فيقول يا رب أدنني من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها فيقول يا ابن آدم ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها ؟ قال بلى يا رب هذه لا أسألك غيرها وربه تعالى يعذره لأنه يرى مالا صبر له عليه فيدنيه منها فإذا أدناه منها سمع أصوات أهل الجنة فيقول أي رب أدخلني بها فقال يا ابن آدم ما يعريني منك أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ؟ قال يا رب أتستهزىء مني وأنت رب العالمين ؟ فيضحك ابن مسعود فقال ألا تسألوني مما أضحك ؟ فقالوا مم تضحك ؟ فقال هكذا ضحك رسول الله ﷺ فقالوا مم تضحك يا رسول الله فقال من ضحك رب العالمين حين قال اتستهزىء مني وأنت رب العالمين فيقول لا أستهزىء منك ولكني على ما أشاء قدير) لمسلم.

روى الطبراني في الكبير والأوسط عن سلمان عن رسول الله ﷺ (لا يدخل الجنة أحد إلا بجواز بسم الله الرحمن الرحيم كتاب من الله لفلان ابن فلان أدخلوه جنة عالية قطوفها دانية) .

روى مسلم عن أنس عن رسول الله ﷺ قال : (آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح فيقول الخازن من انت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك ..)

. . . . . .

ب ـ الجنة والنار

قال تعالى « فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » .

روى مالك والشيخان والترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

(ناركم هذه التي توقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم قالوا والله إن كانت لكافية يا رسول الله قال فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها) .

وقال تعالى « إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب إن الله كان عزيزاً حكيما » وانظر هذه الإشارة المميزة إلى

الجلود وكونها مذاق العذاب إذ أن العلماء اليوم يقولون إن مركز الأعصاب الحاسة بالألم هي الجلود .

قال « ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النـار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون .. » « فأما الذين شُقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد » .

روى الشيخان والترمذي عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ قال (إذا كان يوم القيامة أتي بالموت كالكبش الأملح فيوقف بين الجنة والنار فيذبح وهم ينظرون فلو أن أحداً مات فرحاً لمات أهل الجنة ولو أن أحداً مات حزناً لمات أهل النار) .

وفي رواية (فيؤتى بالموت كهيئة كبش أملح فينادي منادٍ يا أهل الجنة فيشرئبون وينظرون فيقول لهم هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هذا الموت وكلهم قد رآه. ثم ينادي منادٍ يا أهل النار فيشرئبون وينظرون فيقول لهم هل تعرفون هذا ؟ فيقولون نعم هـذا الموت وكلهم قد رآه فيذبح بين الجنة والنار ثم يقول يا أهل الجنة خلود فلا موت ويا أهل النار خلود فـلا موت ثم قرأ « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون » وأشار بيده إلى الدنيا) .

وقال تعـالى « والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور ، وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيـه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » .

« وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفـاد سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار » .

« إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » .

روى الترمذي عن أبي سعيد عن رسول الله ﷺ (لسرادق النار أربعة جدر كثف

كل جدار مسافة أربعين سنة) .

قال تعالى « لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم ولا هم ينصرون » .

« فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم يصهر به ما في بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق » .

« ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون » .

« وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً » .

« يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين يوم يغشيهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون » .

« أم شجرة الزقوم إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين فإنهم لآكلون منها فمالؤون منها البطون ، ثم إن لهم عليها لشوباً من حميم ثم إن مرجعهم لإلي الجحيم » .

« هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله أزواج » .

« إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون ، لا يُفَتَّرُ عنهم وهم فيه مبلسون ، وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين ونادَوا يا مالك ليقض علينا ربُّك قال إنكم ماكثون» .

« إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كالمهل يغلي في البطون كغلي الحميم ، خذوه فاعتِلوه إلى سواء الجحيم ثم صُبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنتالعزيز الكريم إن هذا ما كنتم به تمترون » .

« كمن هو خالد في النار وسقوا ماءاً حميا فقطّع أمعاءهم » .

« إن المجرمين في ضلال وسُعُر ،يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر» .

« هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون يطوفون بينها وبين حميم آن » .

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ، في سَموم وحميم وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين ، وكانوا يصرون على الحنث العظيم ، وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون ، أو آباؤنا الأولون ، قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم ، ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لآكلون من شجر من زقوم ، فمالؤن منها البطون ، فشاربون عليه من الحميم ، فشاربون شرب الهيم ، هذا نُزُلهم يوم الدين » .

« يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » . التحريم

« وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور ، تكاد تميز من الغيظ كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير » .

« إن لدينا أنكالاً وجحيماً وطعاماً ذا غصة وعذابا أليما » .

« وما أدراكِ ما سقر ، لا تبقي ولا تذر ، لواحة للبشر ، عليها تسعة عشر » .

« إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالاً وسعيراً » .

« ويل للمكذبين ، انطلقوا إلى ما كنتم به تُكذبون ، انطلقوا إلى ظِل ذي ثلاثِ شُعب ، لا ظليلٍ ولا يغني من اللهب ، إنها ترمي بشرر كالقصر ، كأنه جِمالتٌ صفر ، ويل يومئذ للمكذبين ، هـذا يومُ لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، ويل يومئذ للمكذبين ، هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين ، فإن كان لكم كيد فكيدون » .

« إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيهـا برداً ولا شرابا ، إلا حميماً وغساقا ، جزاءاً وفاقا ، إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كِذّابا ، وكلُّ شيء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدَكم إلا عذابا » .

« هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة ، عاملةٌ ناصبة ، تَصلى ناراً حامية ، تسقى من عين آنية ، ليس لهم طعام إلا من ضريع ، لا يسمن ولا يغني من جوع » .

« وجيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى ، يقول يا ليتني قدمت لحياتي ، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ، ولا يوثق وثاقه أحد » .

روى مسلم والترمذي عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال (يؤتى بالنار يومئذ

لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها ..)

« كلا لينبذن في الحطمة ، وما أدراك مـــا الحطمة ، نار الله الموقدة التي تطلـّع على الأفئدة ، إنها عليهم مؤصدة ، في عَمَدٍ ممددة » .

« يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد » .

روى الشيخان والترمذي عن أنس :

(لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول هل من مزيد حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض وتقول قط قط بعزتك وكرمك ...)

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ (إن أدنى أهل النار عذاباً ينتعل بنعلين من نار يغلي منهما دماغه من حرارة نعليه) .

روى سمرة عن رسول الله ﷺ (إن منهم من تأخذه النار إلى كعبيه ومنهم من تأخذه النار إلى حجزته ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته) هما لمسلم .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث) .

روى أنس عن رسول الله ﷺ (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النـــار فيصبغ في النار صبغة ثم يقال يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط : هل مر بك من نعيم قط ؟ فيقول لا والله يا رب ويؤتى بأشد الناس بؤساً من أهل الجنة فيصبغ صبغة في الجنة فيقال له يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط ؟ هل مر بك من شدة قط ؟ فيقول لا والله يا رب مـــا مر بي بؤس قط ولا رأيت شدة قط) . لمسلم .

روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أشد كوكب دري في السماء إضاءة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتفلون ولا يتمخطون . أمشاطهم الذهب ورشحهم المسك ومجامرهم الألوة والألنجوج عود الطيب وأزواجهم الحور العين على خلق رجل واحد على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء) .

وفي رواية أخرى (لكل واحد منهم زوجتان يرى ساقهما من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشيا) . للشيخين والترمذي .

روى جابر عن رسول الله ﷺ إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون قالوا فما بال الطعام ؟ قال جشاء ورشح كرشح المسك يلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس) وفي رواية بدل التحميد الحمد وفي أخرى التكبير .

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ (تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفؤ أحدكم خبزته في السفر نزلا لأهل الجنة فأتى رجل من اليهود فقال بارك الرحمن عليك يا أبا القاسم ألا أخبرك بنزل أهل الجنة يوم القيامة قال بلى قال تكون الأرض خبزة واحدة كما قال النبي ﷺ فنظر النبي ﷺ إلينا ثم ضحك حتى بدت نواجذه ثم قال ألا أخبرك بإدامهم قال بلى . قال : إدامهم بالام ونون وقالوا وما هذا ؟ قال ثور ونون يأكل من زيادة كبدهم سبعون الفاً) للشيخين « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها ولهم فيها أزواجاً مطهرة وهم فيها خالدون» أزواج مطهرة أي مما يستقذرون من النساء كالحيض والدرن ودنس الطبع وسوء الخلقة وأما معنى (وأتوا به متشابها) : قال ابن مسعود وابن عباس وناس من أصحاب رسول الله ﷺ متشابها في اللون والمرأى وليس يشبه الطعم الطعم وقال مجاهد: متشابها لونه مختلفاً طعمه وكذلك قال الربيع ابن أنس وقال يحيى بن أبي كثير : عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك . ويطوف عليهم الولدان بالفاكهة فيأكلونها ثم يأتون بمثلها فيقولون : هذا الذي جئتمونا به آنفاً فيقول لهم الخدم : كلوا فإن اللون واحد والطعم مختلف وقال عبد الرحمن بن زيد يعرفون أسماءه كما كان في الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان وليس هو مثله في الطعم ، واختاره ابن جرير .)

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » والآية دلت على أن الجنة موجودة الآن ومن قبل ، ويستغرب بعضهم أن تكون الجنة بهذه السعة ، ولو أدركوا أن الجنه فوق السماء السابعة وأن سقفها عرش الرحمن ، وأن السماء محيطة ، وان محيطة الدائرة أكبر من قطرها ، لما أشكل عليهم في ذلك شيء إذا كان إيمان وعلم ، فالجنة واسعه أكثر من كل تصور خطَر على قلب بشر ،فلا تستغرب أن يكون حظ المؤمن منها كبيراً فوق التقديرات .

(روى المغيرة عن رسول الله ﷺ : (سأل موسى عليه السلام ربه ما أدنى أهل

الجنة منزلة ؟ قال هو رجل يجيء بعدما أدخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له ادخل الجنة، فيقول أي رب : كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ، فيقال له : أما ترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول رضيت يا رب فيقول لك ذلك ومثله ومثله ومثله فقال في الخامسة : رضيت يا رب فيقول هذا لك وعشرة أمثاله ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك فيقول : رضيت يا رب قال رب فاعلاهم منزلة ؟ قال أولئك الذين أردت كرامتهم بيدي وختمت عليهم فلم ترَ عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب بشر ، قال غرس ومصداقه في كتاب الله تعالى : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين . » الآية . .

روى عبادة بن الصامت عن رسول الله ﷺ : إن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض والفردوس أعلى درجة منها تفجر أنهار الجنة الأربعة ومن فوقها يكون العرش فإذا سألتم الله فاسئلوه الفردوس » .

« والذي آمنوا وعملوا الصالحات لا نُكلّف نفسا إلا وسعَها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، ونزعنا في صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهارُ وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تِلْكُمُ الجنةُ أورثتموها بما كنتم تعملون . »

روى مسلم عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال : (ينادي مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً وذلك قول الله عز وجل « ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون . »

قال تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا يَرهقُ وجوههم قتر ولا ذلة أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون . »

روى جرير : (كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر وقال : إنكم سترون ربكم عيانا كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب » للشيخين والترمذي وأبي داود .

روى صهيب عن رسول الله ﷺ : (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى : تريدون شيئاً أزيدكم ؟ فيقول ألم تبيض وجوهنا ؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا

من النار ؟ فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم تعالى) .

(زاد في رواية ثم تلى هذه الآية : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » لمسلم والترمذي .

روى أنس عن رسول الله ﷺ : أتاني جبريل عليه السلام وفي يده مرآة بيضاء فيها نكتة سوداء فقلت ما هذه يا جبريل قال : هذه الجمعة يعرضها عليك ربك لتكون لك عيدا ولقومك من بعدك تكون أنت الأول واليهود والنصارى من بعدك قال ما لنا فيها : قال : لكم فيها خير ولكم فيها ساعة من دعا ربه فيها بخير هو له قَسَمْ إلا أعطاه إياه أو ليس له بقسم إلا ذخر له ما هو أعظم منه أو تعوذ فيها من شر هو عليه مكتوب إلا أعاذه منه أو غير مكتوب إلا أعاذه الله منه . قلت ما هذه النكتة السوداء فيها هذه الساعة تقوم يوم الجمعة وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد قلت لم تدعونه يوم المزيد قال إن ربك تعالى اتخذ في الجنة واديا أفيح من مسك أبيض فإذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسيه ثم حف الكرسي بمنابر من نور وجاء النبيون حتى يجلسوا عليها ثم يجيء أهل الجنة حتى يجلسوا على الكتب فيتجلى لهم ربهم تعالى حتى ينظروا إلى وجهه وهو يقول أنا الذي صدقتكم وعدي وأتممت عليكم نعمتي هذا محل كرامتي فاسألوني فيسألونه الرضى فيقول تعالى رضائي أحلكم داري وأنا لكم كرامتي فاسألوني فيسألونه حتى تنتهي رغبتهم فيفتح لهم عند ذلك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى مقدار منصرف الناس يوم الجمعة ثم يصعد تعالى على كرسيه فيعود معه الشهداء والصديقون أحسبه قال : ويرجع أهل الغرف إلى غرفهم درة بيضاء لا فصم فيها ولا فصم أو ياقوتة حمراء أو زبرجدة خضراء منها غرفها وأبوابها مطردة فيها أنهارها متدلية فيها ثمارها فيها أزواجها وخدمها فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة ليزدادوا فيه نظراً إلى وجهه تعالى ولذلك دعي يوم المزيد) . للبزاز والكبير والأوسط والموصلي .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجرَ من أحسن عملا ، أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يُحلّون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثيابا خضرا من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقا » .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » .

في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

(من يدخل الجنة ينعم فلا ييأس ، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه ، في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال :

(تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء) .

وروى الترمذي عن معاذ بن جبل قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول من صلى الصلوات الخمس وصام شهر رمضان كان حقاً على الله أن يغفر له هاجر أو قعد حيث ولدته أمه قلت يا رسول الله ألا أخرج فأوذن الناس ؟ قال لا دع الناس يعملون فإن في الجنة مائة درجة بين كل درجتين مثل ما بين السماء والأرض وأعلاها درجة منها الفردوس وعليها يكون العرش وهي أوسط شيء في الجنة ومنها تفجر أنهار الجنة فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس) .

قال تعالى « فخلف من بعدهم خَلْفٌ اضاعوا الصلاةَ واتبعوا الشهواتِ فسوف يلقون غيا ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظْلمون شيئا ، جناتِ عدنٍ التي وعد الرحمن عبادَه بالغيب إنه كان وعدُهُ مأتيا ، لا يسمعون فيها لغوا إلا سلاما ولهم رزقهم فيها بكرة وعشيا ، تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا » .

« إن الله يدخل الدين آمنوا وعملوا الصالحات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار يحلّون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير ، وهدوا إلى الطيّب من القول وهدوا إلى صراط الحميد » .

« والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غُرفـًا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين ، الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون . »

في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ قال :

« إن المؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلا للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضا » .

وروى الطبراني عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: (إن في الجنة غرفا يرى ظاهرها من باطنهاوباطنها من ظاهرها أعدها الله لمن أطعم الطعام وأدام الصيام وصلى بالليل والناس نيام) .

« إن أصحاب الجنة اليومَ في شغل فاكهون ، هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك

متكئون ، لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون ، سلام قولا من رب رحيم » .

روى الطبراني عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ :

(إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكاراً) .

قال عكرمة في قوله تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون »أي افتضاض الأبكار وقال ابن مسعود افتضاض العذارى .

روى ابن ماجه عن رسول الله ﷺ قال: (بينا أهل الجنة في نعيمهم إذ سطع لهم نور فرفعوا رؤوسهم فإذا الرب قد أشرف عليهم فقال السلام عليكم يا أهل الجنة وهو قول الله عز وجل : « سلام قولاً من رب رحيم » فلا يلتفتون الى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه حتى يحتجب عنهم) .

قال تعالى « وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين ، وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين ، وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين » .

في الصحيحين من حديث سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال : (في الجنة ثمانية أبواب باب منها يسمى الريان لا يدخله إلا الصائمون وفيهما من حديث أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ من أنفق زوجين في شيء من الأشياء في سبيل الله دعي من أبواب الجنة : يا عبدالله هذا خير فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان فقال أبو بكر بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة فهل يدعى أحد من تلك الأبواب كلها ؟ فقال نعم وأرجو أن تكون منهم) .

وفي صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ قال (ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو يسبغ الوضوء ثم يقول أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء) .

زاد الترمذي بعد التشهد (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين) زاد أبو داود والإمام أحمد (ثم يرفع نظره الى السماء) وعند أحمد عن أنس عن رسول الله

ﷺ من توضأ فأحسن الوضوء ثم قال ثلاث مرات أشهد أن لا إله إلا الله الخ. وعن عتبة بن عبد الله السلمي قال سمعت رسول الله ﷺ يقول (ما من مسلم يتوفى له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل) رواه ابن ماجه وعبد الله بن أحمد ..

وروى أبو هريرة في حديث الشفاعة قال ﷺ (فانطلق فآتي العرش فأقع ساجداً لربي فيقيمني رب العالمين مقاما لم يقمه أحد قبلي ولا يقيمه أحداً بعدي فأقول يا رب أمتي أمتي فيقول يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن (وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب (والذي نفس محمد بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو هجر ومكة) وفي لفظ (لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى) متفق عليه وفي لفظ خارج الصحيح بإسناده (إن ما بين عضادتي الباب لكما بين مكة وهجر ..)

« ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدّعون نزلاً من غفور رحيم » .

« يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ، الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين ، أدخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تحبرون ، يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

زوجة الإنسان التي كانت له الدنيا تكون أجمل من الحور العين في الجنة ولكل ما تشتهي نفسه وتلذ عينه .

« إن المتقين في مقام أمين في جنات وعيون ، يَلبَسون من سندس واستبرق متقابلين، كذلك وزوجناهم بحور عين ، يَدْعُون فيها بكل فاكهة آمنين ، لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ووقاهم عذاب الجحيم ، فضلاً من ربك ذلك هو الفوز العظيم . »

في صحيح مسلم من حديث جابر قال قال رسول الله ﷺ يأكل أهل الجنة ويشربون ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون طعامهم ذلك جشاء كريح المسك يلهمون التسبيح والحمد .

وفي المسند والنسائي بسند صحيح عن زيد بن أرقم قال جاء رجل من أهل الكتاب

إلى النبي ﷺ فقال يا أبا القاسم تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون ؟ قال نعم والذي نفس محمد بيده إن أحدهم ليعطى قوة مئة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة : قال فإن الذي يأكل ويشرب يكون له الحاجة وليس في الجنة أذى قال يكون حاجة أحدهم رشحا يفيض من جلودهم كريــح المسك فيضمر بطنه) ورواه الحاكم في مستدركه بنحوه .

وروى الحسن بن عرفه عن ابن مسعود قال قال لي رسول الله ﷺ إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فتشتهيه فيخر بين يديك مشويا .

وروى الحاكم عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ (إن في الجنةطيرا أمثال البخاتي) فقال أبو بكر (إنها لناعمة يا رسول الله قال أنعم منها من يأكلها وأنت ممن يأكلها) .

وروى الحاكم عن قتادة في قوله تعالى « ولحم طير مما يشتهون » الواقعه ٢١ نحوه وعن ابن عمرو في قوله تعــالى « ويطاف عليهم بصحاف من ذهب » الزخرف (٢١) قال بسبعين صحفة كل صحفة فيها لون ليس في الأخرى .)

روى أبو هريرة أن النبي ﷺ كان يتحدث وعنده رجل من أهل البادية : أن رجلا استأذن ربــه في الزرع فقال ألست فيما شئت ؟ يقول بلى ولكن أحب ذلك فيؤذن له فيبذر فيبادر الطرف نباته واستحصاده وتكويره أمثال الجبال فيقول الرب تعالى دونك يا ابن آدم فإنه لا يشبعك شيء فقال الأعرابي : إنك إن تجده إلا قرشيا أو أنصاريا فإنهم أصحاب زرع فأمــا نحن فلسنا بأصحاب زرع فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه) للبخاري .

قال أبو سعيد إن المؤمن إذا اشتهى الولد في الجنة كان حمله ووضعه وسنه في ساعـة واحدة كما يشتهي رواه الترمذي . وقد فسرت تحبرون في الآية « أنتم وأزواجكم تحبرون » باللذة والسماع وقد وردت آثار في سماع أهل الجنة من أزواجهن ومن الحور العين ومن بعض الملائكة وهو (أي السماع) على كل حال مما تشتهيه النفس ولهم فيهـا ما يشتهون ولا تشتهي أنفسهم إلا الطيب .

« مثل الجنة التي ُوعِدَ المتقون فيها أنهار من ماء غيرِ آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيهــا من كل الثمرات

ومغفرة من ربهم . »

روى الترمذي عن معاوية جد بهز بن حكيم عن رسول الله ﷺ إن في الجنة بحر العسل وبحر الخمر وبحر اللبن وبحر الماء ثم تنشق الأنهار بعد .)

« إن المتقين في جنات ونعيم فاكهين بما آتاهم ربهم ووقاهم ربهم عذاب الجحيم ، كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين ، والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امريء بما كسب رهين وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون يتنازعون فيها كأساً لا لَغْوٌ فيها ولا تأثيم ويطوف عليهم غلمان لهم كأنهم لؤلؤ مكنون » « ولمن خاف مقام ربه جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ذواتا افنان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما عينان تجريان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما من كل فاكهة زوجان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على فرش بطائِنـُها من إستَبرق وجنا الجنتين دان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان . فيهن قاصرات الطرف لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، كأنهن الياقوت والمرجان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، ومن دونهما جنتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، مُدْ هامتّان ، فبأي آلاء بكما تكذبان ، فيهما عينان نضاحتان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهما فاكهة ونخلٌ ورمان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، فيهن خيراتٌ حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، حور مقصورات في الخيام ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، متكئين على رَفْرَفٍ خُضرٍ وعبقري حسان ، فبأي آلاء ربكما تكذبان ، تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام » .

« والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، في جنات النعيم ، ثلةٌ من الأولين ، وقليل من الآخرين ، على سرور موضونة ، متكئين عليها متقابلين ، يطوف عليهم ولدان مخلدون ، بأكواب وأباريقَ وكأسٍ من معين ، لا يُصَدَّعون عنها ولا يُنـْزِفون ، وفاكهةٍ مما يَتـَخيرون ، ولحمِ طير مما يشتهون ، وحورٌ عين ، كأمثال اللؤلؤِ المكنون ، جزاءً بما كانوا يعملون ، لا َيسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ، إلا قيلا سلاماً سلاماً ، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين ، في سِدْرٍ مَخْضودٍ ، وطلح منضود ، وظل ممدود ، وماء

مسكوب ، وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة ولا ممنوعـــة ، وفرش مرفوعة ، إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكارا ، عربا أترابا ، لأصحاب اليمين ، ثلة من الأولين ، وثـــلة من الآخِرين .)

روى الشيخان والترمذي عن أبي موسى عن رسول الله ﷺ (جنتان من فضة آنيتها وما فيهما وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن) .

وفي الصحيحين عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال (أدخلت الجنة فإذا بها جنابذ اللؤلؤ وإذا ترابها المسك .) وهو قطعة من حديث المعراج .

وروى مسلم عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ سأل ابن صياد عن تربة الجنة فقال در مكة بيضاء مسك خالص فقال صدق. وروى سفيان بن عيينه عن جابر بن عبدالله في قصة اليهود فلما أن جاؤوه قالوا يا أبا القاسم كم عدد خزنة أهل النار ؟ فقال رسول الله ﷺ (بيديه كلتيهما هكذا وهكذا) وقبض واحدة أي تسعة عشر فقال لهم رسول الله ﷺ (ما تربة الجنة ؟) فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا خبزة فقال الخبزة من الدرمكة.)

وفي الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال إن في الجنـــة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها (واقرؤوا إن شئتم « وظل ممدود » الواقعة (٣) وروى أحمد عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ إن فى الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مئة سنة هي شجرة الخلد . وروى ابن ابي الدنيا عن ابن عباس قال : الظل الممدود شجرة في الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد في ظلها مئة عام في كل نواحيها فيخرج إليها أهل الغرف وغيرهم فيتحدثون في ظلها :قال فيشتهي بعضهم ويذكر لهو الدنيا فيرسل الله ريحاً من الجنة فيحرك تلك الشجرة بكل لهو كان في الدنيا) .

وقد روى الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال : (يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع) قيل يا رسول أو يطيق ذلك ؟ قال : (يعطى قوة مائـــة) حديث صحيـــح .

« إن للمتقين مفازا ، حدائق وأعنابا ، وكواعب أترابا ، وكأساً دهاقاً، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا ، جزاءاً من ربك عطاء حساباً » .

« إن الأبرار لفى نعيم على الأرائــك ينظرون ، تعرف في وجوههم نضرة النعيم ، يسقون من رحيق مختوم ، ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، ومزاجه من تسنيم ، عينا يشرب بها المقربون » .

« إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا ، عينا يشرب بهــا عباد الله يفجّرونها تفجيرا ، يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيرا ، ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا ، إنما نطعمكم لوجـــه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريرا ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا ، متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمسا ولا زمهريرا ، ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا ، ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواكب كانت قواريرا ، قواريرمن فضة قدروها تقديرا ، ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا ، عينا فيها تسمى سلسبيلا ، ويطوف عليهم ولدان مخــلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا ، وإذا رأيت ثَمّ رأيت نعيما وملكا كبيرا ، عاليهم ثياب سُندس خُضر ٌ وإستبرق وحُلـّوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا ، إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » .

قال تعالى « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات . »

روى أبو سعيد عن رسول الله ﷺ : (إن أهل الجنة ليتراؤن أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق إلى المغرب لتفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ؟ قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدّقوا المرسلين) رواه الشيخان .

« وجوه يومئذ ناعمة ، لسعيها راضية ، في جنة عالية ، لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر ٌ مرفوعة ، وأكواب موضوعة ، ونمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة).

النمارق / الوسائد ... والزرابي / البسط ... والمبثوثة / المبسوطة .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ، جزاؤهم عند ربهم جناتُ عَدْنٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضي الله عنهم ورضوا عنــه ، ذلك

لمن خشي ربه ..)

(روى البخاري ومسلم والترمذي عن رسول الله ﷺ قال : (غدوة في سبيل الله أو رَوْحة ٌ خير من الدنيا وما فيها ولـَقاب َ قوس ِ أحدكم أو موضع قدمه في الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى أهـــل الأرض لأضاءت الدنيا وما فيها ولملأت ما بينهما ريحا ولنصيفها يعني خمارها خير من الدنيا وما فيها .)

. . . . . .

- ٨ -

اليوم الآخر، الجنة والنار، هذا هو المؤيد الأخير للإسلام الذي لا يبقي للإنسان خيارا، إما الإسلام والجنة ، وإما الكفر والنفاق والنار ، فأي خيار بعد هذا ؟ .

والقضية ليست قضية خيالات أو أوهام كما يتصورها الكافرون ، وكما يحاول إبرازها بعض المغرضين ممن كتبوا عنها من أهل الكتابة الأدبية ..

وإنما هي أكبر الحقائق بعد وجود الله إذ هي الفرع الأكبر لرسالة الرسل . ومن قرأ البحث الأول (الله) عرف أن الأمر على الله سهل . ومن قرأ بحث الرسول ﷺ عرف أن المسألة حق لا ريب فيها ، لأنها بلاغ أصدق الصادقين ، من قامت الأدلة على أنه رسول لله ، وصادق بشكل لا يرتاب معه إنسان ذو عقل .

هذا هو المؤيد الذي يجعل المؤمنين لا يبالون بنصر قريب عاجل ، أو ببلاء يصبّه عليهم أعداؤهم صبا ، أو بخسارة دنيا صغيرة مهينة ، وكيف يبالون والله الذي لا أحد أصدق منه يُثَبّت فؤادهم بما أعد لهم من فوز وغلبة في اليــــوم الآخر اليقيني الوقوع ، الذي لا تساوي الدنيا بالنسبة اليه شيئا .

« زُيّنَ للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يومَ القيامة » .

« إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا َفكِهين ، وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين ، فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، على الأرائك ينظرون ، هل ثوب

الكفار ما كانوا يفعلون » .

« ونادى أصحابُ الجنة أصحابَ النار أنْ قدوجدناما وعدنا ربُنا حقا فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا قالوا نعم فأذّن مؤذن بينهم أن لعنةُ اللهعلى الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله ويَبغونهـا عوجا وهم بالآخرة كافرون ، وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجال يعرفون كـُلا بسيماهم ونادوا أصحابَ الجنة أنْ ســلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون ، وإذا صُرِفَتْ أبصارهم تلقاء أصحابِ النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ، ونادى أصحابُ الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جَمْعُكم وما كنتم تستكبرون ، أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالـُهم الله برحمة ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ، ونادى أصحابُ النار أصحابَ الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرّمَهُما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نَسُوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون .

« فأقبل بعضُهم على بعض يتساءلون ، قال قائل منهم إني كان لي قرين، يقول أئِنـَّك لمن المُصَدّقين ، أئذا متنا و كنا ترابا وعظاما أئنا لمَدِينون ، قال هل أنتم مطـلعون ، فاطلع فرآه في سواء الجحيم ، قال تالله إنْ كِدْتَ لـَتُردين ، ولولا نعمةُ ربي لكنت من المُحْضَرين ، أفما نحن بميتين ، إلا موتـَتـنا الأولى وما نحن بمعذّبين ، إنّ هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا فليعمل فعاملون » .

« هذا ذكرٌ وإن للمتقين لـَحُسن مآب ، جنات عدنٍ مُفـَتـّحةً لهم الأبواب ، متكئين فيها يَدْعُون فيها بفاكهة كثيرة وشراب ، وعندهم قاصرت الطرف أترابٌ ، هذا ما توعدون ليوم الحساب ، إنّ هذا لـَرِزقـُنا ما له من نفاد ، هـذا وإن للطاغين لشر مآب ، جهنمَ يصلونها فبئس المهاد ، هذا فليذقوه حميم وغساق ، وآخرُ من شكله أزواج ، هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم إنهم صالوا النار ، قالوا بل أنتم لا مرحبا بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار ، قالوا ربّنا من قدّم لنا هذا فزده عذابا ضعفا في النار ، وقالوا ما لنا لا نرى رجالا كنــا نـَعُدهم من الأشرار ، اتخذناهم سِخْريا أم زاغت عنهم الأبصار ، إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » .

« وإذ يتحاجون في النار فيقولُ الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد ،

وقال الذين في النار لخزنة جهنمَ ادعوا ربَّكم يخففْ عنا يوما من العذاب ، قالوا أو لم تك تأتيْكم رسلكم بالبينات قالوا بلى فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » .

« ولو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يَرجِع بعضهم إلى بعض القولَ يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استُضعِفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استُضْعِفوا للذين استكبروا بل مكرُ الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعلَ له أندادا واسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يُجزون إلا ما كانوا يعملون » . .

« قال ادخلوا في امم قد خلت من قبلكم من الجنِ والإنسِ في النار كلما دخلت أمة لعنت اختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار قال لكل ضعف ولكن لاتعلمون ، وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » .

« ولو يرى الذين ظلَموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديدُ العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأو العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتَّبعوا لو أن لنا كرَّة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا كذلك يريهم الله أعمالَهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » .

. . . . . .

- ٩ -

ونختم هذا البحث بما ذكره الأستاذ المودوي عن اليوم الآخر في كتابه (الحضارة الإسلامية : أُسسها ومبادؤها) ننقلها مع حذف لبعض الجمل لتثبيت معان مهمة .

الايمان باليوم الآخر [1] :

المراد باليوم الآخر الحياة بعد الموت ، وقد سمي ذلك بالحياة الآخرة ، ودار الاخرة ، وقلما تخلو صفحة من صفحات القرآن والقرآن قد أبدأ القول وأعاده لإرساخه في ذهن الإنسان ، وأقام الأدلة على صدقه ، وبين حكمته وأهميته ، ودعا إلى الإيمان به ، وقال بكل صراحة إن الإنسان إن كان لا يؤمن به فقد حبطت أعماله ، ولا خسارة في الدنيا

---

(١) يراجع كتاب تعريف عام بدين الاسلام للاستاذ علي الطنطاوي (الناشر) .

أعظم من خسارته ..

« والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم » (الاعراف ١٤٧) .

« قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله » (الانعام ٢٦١) .

والاعتقاد باليوم الآخر الذي قد عرض بمثل هذه الأهمية البالغة هو في حقيقة أمره جواب عن أسئلة تنشأ في ذهن الإنسان وتنبعث من نفسه بسائق فطرته التي قد فطر عليها .

أسئلة فطرية :

إن الإنسان يشعر بالحزن أكثر مما يشعر بالفرح ، وبالألم والنكبة أكثر مما يشعر بالراحة والنعمة وهذه عين طبيعته ، فإن كل شيء إذا كان أسرع صدمة لأحاسيسه كان أكثر تحريكا لقوة فكره ، ألا ترى أننا حين نحصل على شيء فقلما نتساءل من أين جاء ؟ وكيف جاء ؟ وإلى متى يبقى عندنا ؟ ولكن حين نفقد شيئاً فإن الحزن عليه يصب على مخيلتنا سوطاً قوياً ، وهناك نجد أنفسنا نتساءل : كيف قد ضاع علينا ؟ وأين قد ذهب ؟ وأين عسى أن يكون الآن ؟ وهل عسى أن نعثر عليه مرة أخرى ؟ ولأجل هذا فإن السؤال عن مبدأ الحياة لا يهمنا بقدر ما يهمنا السؤال عن الموت وما بعده ؟ لا شك أننا حين نرى هذا العالم ووجودنا فيه قد نتساءل ما هذا العالم ؟ كيف بدأ ؟ ومنذا قد أحدثه ؟ ولكن ما كل هذه التساؤلات إلا من أحاديث الفراغ ولذا فإن عامة الناس قلما يشغلون بها أذهانهم ، وإنما عدد يسير من الخواص أصحاب الفكر العميق هم الذين يشغلون بها أذهانهم ، وعلى العكس من ذلك فإن كل إنسان في الدنيا لا بد وأن يفكر في الموت ومرارته ... لا بد أن تعرض له حياته غير حادثة واحدة يرى فيها أقاربه وأحبابه يفارقون الحياة أمام عينيه .. يموت الفقير والغني والضعيف والقوي ... ومن حوادث الموت ما يترك في الأذهان والقلوب المآسي والأحزان والعبر وأخيراً يستيقن كل حي بأنه هو الآخر لا بد أن يمضي على السبيل الذي قد مضى عليه غيره .. ولعل الدنيا ليس فيها فرد واحد يشاهد هذه الحوادث والمناظر ثم لا يقلقه السؤال عن الموت ولا يتساءل .. ما هذا الموت ؟ وأين يفضي الإنسان بعد اجتياز بابه ؟ وماذا وراء هذا الموت ؟ بل هل وراءه شيء أم لا ؟ .

هذا السؤال عام قد تفكر فيه العوام والخواص جميعا ، من الفلاحين العاديين ، إلى الفلاسفة والحكماء النطاسيين الكبار ، وهناك في هذا الصدد أسئلة أخرى تخالج كل ذي فكر تقريباً ويزيد من شدتها ما يعرض له في حياته من حوادث مقلقة كثيرة . إن هذه الحياة القصيرة التي ينالها كل فرد منا في هذه الدنيا لا تنقضي كل لحظة من لحظاتها إلا في جهد من الجهود ، أو حركة من الحركات ، حتى إن الذي نسميه السكون والركود ما هو في حقيقة أمره إلا حركة ، والذي نسميه البطالة والفراغ ما هو في حقيقة أمره إلا عمل وشغل ، ولا بد أن يكون لكل فعل من هذه الأفعال مفعول ، ولكل حركة من هذه الحركات تجاوب ، ولكل جهد من هذه الجهود ثمرة وعاقبة . من اللازم أن تكون ثمرة كل حسنة حسنه ، وثمرة كل سيئة سيئة ، ولا بد أن تظهر نتيجة كل سعي طيب بصورة طيبة ، ونتيجة كل سعي خبيث بصورة خبيثة ، ولكن هل إننا في هذه الحياة ننال ثمرة كل جهد من جهودنا ، ونتيجة كل فعل من أفعالنا ؟ إن رجلا فاسقاً ما زال طول حياته يرتكب المنكرات والفواحش فنال جزاء بعضها في هذه الحياة الدنيا نفسها بصورة مرض أو ألم أو مصيبة أو نكبة ، ولكن على ذلك بقيت منكرات كثيرة ما نال جزاءها في حياته الدنيا هذه على أكمل وجه وأوفاه فكانت منها — مثلا — منكرات ارتكبها مستترا فلم يعلم بها الناس ، وما زالوا يرون فيه رجلا صالحاً على غير حقيقته ، وإن علموا بها فإن المسكين الذي ظلمه ما لقي في هذه الحياة ما يتلافى به خسارته على كل حال . والأمر إذا كان هكذا فهل يبقى ظلم هذا الظالم ، وصبر هذا المظلوم دون ما نتيجة ؟ أو لا تظهر لظلمه ولا لصبرهم عاقبة أبداً ؟ وقل مثل هذا بالنسبة للمعروفات والحسنات . فكم من رجال صالحين ما زالوا يعملون الصالحات طول حياتهم ولكن دون أن ينالوا جزاءها في حياتهم الدنيا هذه على أكمل وجه وأوفاه ، فاشتهروا بالسوء على بعضها أصلا فهل قد ذهبت كل أعمالهم الصالحة هباءاً منثورا ؟ وهل يكفي لهم جزاء على كل جهودهم المضنية المتتابعة أن قد نالوا ارتياحا نفسيا وطمأنينة قلبية .

هذا السؤال يتعلق بالأفراد والأشخاص . ولكن هناك بعد هذا السؤال سؤال آخر يتعلق بمصير هذا العالم ، وعاقبة كل ما فيه من الأنواع والأجناس والعناصر . وبيانه أن هذا العالم يموت فيه أناس ثم يولد مكانهم أناس آخرون ، وتفنى فيه أشجار وأنعام ثم تنبت أو تولد مكانها أشجار وأنعام أخرى . فهل إن سلسلة الموت والحياة هذه تبقى

جارية مضطردة هكذا دونما نهاية ؟ وهل إن هذا الهواء ، وهذا الماء ، وهذا النور ، وهذا الحر ، وهذه القوى الطبيعية التي يجري بها هذا المعمل الكوني العظيم على أسـلوب مضبوط ... هل هي كلها خالدة لا يعتريها الزوال والفناء أبداً ؟ أليس لها أجل محدود؟ أليس لنظامها وترتيبها أن يعرف نوعاً من التغير والتبدل ؟ إن الاسلام قد عالج كل هـذه الأسئلة ، وما عقيده الحياة الآخرة في حقيقة الأمر إلا جواب عن هذه الأسئلة ، ولكن مما يحسن بنا قبل أن نتكلم عن هذا العلاج وصدقه ونتائجه المعنوية والمدنية .. أن ننظر أين من النجاح والتوفيق ما قد بذل الإنسان نفسه من الجهـود والمساعي لعـلاج هذه الأسئلة . ؟

. . . . . .

إنكار الآخرة :

تقول طائفة من الناس إن الحياة إنما هي هذه الحياة التي نحياها ، وأن ليس معنى الموت إلا الفناء والزوال والانتهاء والانعدام لا حياة بعده ولا شعور ولا ثمرات ولا نتائج :

« إن هؤلاء ليقولون إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين » (الدخان ٣٥) .

« وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الدهر » (الجاثية ٣٤) .

وأما معمل الكون الذي نعيش فيه فيقولون إنه خالد أبدي لا زوال له ولا فناء ، وأنه من القوة والمتانة والاستحكام بحيث لا يتسرب إليه الضعف والبلى أبد الدهر .

والذين يقولون بهذا لا يقولون به لأنهم قد عرفوا على وجه اليقين والتثبت بوسيلة من وسائل العلم أن لا شيء بعد الموت ، وأن معمل الكون لا زوال له ولا فناء في واقع الأمر ، وإنما قد اعتمدوا في ذلك على حواسهم ، وما أقاموا هذا الرأي إلا لمجرد أنهم ما شعروا بكيفية ما بعد الموت ، وما شاهدوا بأم أعينهم أثراً من آثار اختلال نظام العالم ، ولكن هل إن مجرد عدم شعورنا بشيء برهان كاف على عدم وجوده في واقع الأمر ؟ وهل إن شعورنا بالأشياء هو وجودها ، وان عدم شعورنا بها هو عدم وجودهـا ؟ ولو كان الأمر كذلك لكان من حقي أن أقول إن الشيء الفلاني الذي ألمسه بيدي ، أو أنظر إليه بعيني ، لا يبرز إلى حيز الوجود إلا عندما ألمسه بيدي أو أنظر اليه بعيني ، وإنه عندما يتوارى عن عيني ، ويغيب عن شعوري يفنى وينعدم ، ولكان من حقي أن أقول : إن النهر

الذي كنت رأيته ما كان خرج إلى عالم الوجود إلا حينما رأيته يجري ، ودخل عالم الفناء والعدم لما توارى عن نظري ، ولكن هل لرجل عاقل أن يعترف بصحة قولي هـــذا ؟ والجواب على هذا إن كان بالنفي – وهو بالنفي ولا شك – فما لرجل عاقل أن يصدق الرأي القائل بأن لا شيء بعد الموت أصلا لأنه ما جاء تحت مشاهدته وتجربته .

ثم إنه كما لا يصح الحكم بشيء على الموت والفناء لمجرد الاعتماد على الحس والمشاهدة ، كذلك لاعبرة بالأمور التي يحكم بها على الحياة والبقاء لمجرد الاعتماد على الحس والمشاهدة، وأنه إذا صح الحكم بالبقاء والخلود على معمال الكون لمجرد أن الإنسان ما رآه يفنى وينقرض بعينه ، فإن لي إذا رأيت بناء مشيدا أن أقول إنه لا يبلى ولا يفنى إلى أبد الآباد لأني مـا رأيته بأم عيني ينهدم ، ولا رأيت فيه أثرا للضعف ينبيء بزواله في المستقبل . ولكن هل يكون هذا الاستدلال مني جديراً بالقبول والتسليم لدى أرباب العقل ؟ .

تأثير انكار الآخرة في الأخلاق .. :

مما يكاد يجمع عليه رأي الحكماء والفلاسفة أن نظام العالم لا بد له من الاختلال والانتهاء يوماً من الأيام ، ولعله ليس في جماعة أهل العلم اليوم من لا يزال يقول بالنظرية القديمة القائلة بأزلية العالم وأبديته ، غير أن فيهم عددا لا يستهان به يقولون إن الموت إنما هو فنـــاء محض لا حياة بعده بأي شكل من الأشكال ، ولا تقوم عقيدتهم هذه إلا على أساس الأمر غير المعقول الذي ذكرناه آنفاً : ومن الحقيقة بشأن هذه الحقيقة – ولو قطعنا النظر عن عدم معقوليتها – إنها لا ترجع ولا تستطيع أن ترجع على الإنسان بشيء من الثقة والطمأنينة النفسية ، وليس مـا يجيب بشيء على كثير من الأسئلة التي تخالـج نفس الإنسان عندما يتفكر في شئون الحياة ومتعلقاتها . وفوق هذا فإن الإنسان إذا كانت أخلاقه وأعماله قائمة على هذه العقيدة فإنها لا تخلو من إحدى حالتين : إذا كانت ظروفه غير ملائمة له فلا بد أن تصيبه هذه العقيدة بنوع من اليأس والقنوط والتقاعس وخور العزيمة لأنه عندما لا يرى في حياته نتيجة لما يؤدي فيها من أعمال البر والصلاح والخير تبرد فيه قوة العمل والجد والنشاط ، وهو عندما لا يجد في هذه الحياة من ينصفه من ظالم ينكسر قلبه ، وهو عندما يرى الظالمين الفاسقين في هذه الدنيـــا يترفلون في النعيم ، ويستمتعون بلذات الحياة ومباهجها ، ويحرزون فيها الرقي والتقدم، ويجمعون فيها أسباب البذخ والترف والقوة والبطش ، يحسن أن الشر له الحكم النافذ والكلمة المسموعة في عالم

الحياة ، وأن ليس فيه الخير ، إلا ليكون ذليلاً مغلوباً على أمره . وعلى العكس من هذا فإن ظروفه إذا كانت ملائمة له ، جارية على هواه ، فإنه لا بد أن ينقلب إلى حيوان نهم يعبد هواه لتأثير هذه العقيدة فيه ، وأنه إذا بقي محروماً من لذة من لذات الدنيا ونعمة من نعمها ، فلا حياة له بعد هذه الحياة ليتداركها فيها ، إذن لا بد أن يظلم الناس ،ويهضم حقوقهم ، ويسفك دماءهم ، وينهش أعراضهم ، ويقطع أرحامهم ، ويسعى في الارض فساداً ، ولا يتحرج في التسلح بأشنع وأبشع ما يكون من الحيل لتحقيق أهواء نفسه ، وأن أكبر بر ، وأعظم صلاح يمكن أن يتصوره هو مـــا يرجع على إظهاره بحسن القالة والسمعة والعز والكرامة ، أو فائدة أخرى من الفوائد الدنيوية . كذلك لا يرى الجرائم والذنوب إلا في أعمال يخشى أن ترجع عليـــه بعقوبة دنيوية ، أو مضرة جسدية ، أو خسارة مادية .

أما الحسنات والخيرات والصالحات التي ترجع بنوع من المنفعة في هـــذه الدنيا ، فلا تكون في نظره إلا سفاهة وحماقة ، وأما السيئات والمستقبحات التي لا ترجع عليه بنوع من الخسارة في هذه الدنيا ، فلا تكون في نظره إلا عين الحق والصواب .

ولعمر الحق إن مجتمعاً في الدنيا إذا كان كل نظامه للأخلاق لا يقوم إلا على هـــذه العقيدة ،وهذه العقلية ،فلا بد أن تنقلب كل تصوراته المعنوية وقيمه المعنوية ظهراً لبطن.. إذ لا يقوم كل نظامه للأخلاق والأعمال إلا على الأثرة والأنانية وحب الذات ، ولا يكون البر والصلاح والخير في نظره إلا عبارة عن المتعة المادية والفائدة الدنيوية ، ولا يكون الإثم والذنب والشر في نظره إلا عبارة عن الخسارة المادية الدنيوية ، ولا يكون الكذب والمكر والخداع إثماً في نظره إلا إذا كان يسبب له نوعاً من الخسارة في ماله أو جسده ، وينقلب إلى عين الحق والصواب إذا ما أصبح يسبب له نوعاً من المنفعة في ماله أو جسده . والصدق والإخلاص إذا كان يجلب إليه منفعـــة يكون في نظره حسنة من الحسنات ، ومكرمة من المكارم ، وإذا كان يجلب إليه خسارة يكون أكبر سيئة وأعظم ذنب ، والزنا يكون وسيلة لتحقيق لذة النفس ومتعتها ، ولا تحدث فيه ناحيـــة للإثم ، والفساد عنده إلا حين تحدث فيه ناحية للمضرة بصحته .

وجملة القول أن الإنسان ما دام لا يخاف أو لا يرجو نتيجة سيئة أو حسنة وراء هذه الحياة الدنيا ، فإنه لا يطمح ببصره وراء أعماله إلا الى النتائج العاجلة الظاهرة في هــذه

الدنيا نفسها . ولذلك لا بد أن تتغير قيم الأعمال المعنوية على وجه ليس له مجال أن يكون ملائماً لمجتمع إنساني مهذب ، بل الأصح أن أي طائفة إنسانية إذا تمنت لأخلاقها مثل هذا المستوى الدنيء ، فإنها لن تنقذ نفسها من التدهور إلى درجة أحط من درجة البهائم والوحوش الضارية .

ولقائل أن يقول في هذا المقام: إن الدنيا ليس فيها الجزاء أو العقاب الخسائر والمنافع المادية والجسدية فحسب بل هناك في داخل الإنسان قوة تعرف بالضمير يكون تأنيبها وعدم ارتياحها عقوبة كافية للإنسان على اقتراف الذنوب والآثام ، ويكون ارتياحها جزاءاً كافياً للإنسان على أدائه الحسنات والخيرات والصالحات ... إذا قيل هذا قلت جواباً عنه : إن هناك من الذنوب والآثام ما إن فوائدها الدنيوية ولذائذه المادية تجعل الإنسان لا يبالي بتأنيب الضمير ، وهناك من الحسنات والصالحات ما لا بد للانسان إذا أراد أداءه أن يقوم بتضحيات جسيمة لا يكاد مجرد ارتياح الضمير أن يكون جزاءاً كافياً عليها . ثم إننا إذا فكرنا في حقيقة الضمير نفسه علمنا أن ليست وظيفته أن يخلق التصورات الخلقية،وإنما وظيفتهأن يؤيد ما يرسخ في ذهن الإنسان من التصورات الخلقية بنوع خاص من التربية والتعليم لأجل هذا فإن ضمير الكافر لا يؤنبه على كثير من الأعمال التي يؤنب عليها ضمير المسلم إياه . إذن فإن مجتمعاً إنسانياً إذا تبدلت تصوراته المعنوية ، وانعكست مقاييسه للخير والشر ، فإنه لا بد أن تتغير مع ذلك وجهة الضمير نفسه ، فهو إذن لا يؤنب الأفكار أبداً على أعمال قد تخلى المجتمع عن الاعتقاد بفسادها ، ولا يشعر بشيء من الارتياح والطمأنينة إذا ما اقترفوا أعمالاً لا يعتقد المجتمع بصلاحها .

عقيدة تناسخ الأرواح :

وطائفة أخرى تقدمت الى الأنسانيه بعقيدة أخرى بشأن ما بعد الموت هي عقيدة تناسخ الأرواح وخلاصتها أن الموت ليس معناه الفناء المحض ، وإنما معناه استبدال الروح جسداً بجسد ، يقولون إن الروح بعدما تفارق جسداً في هذه الدنيا تنتقل إلى جسد آخر في هذه الدنيا نفسها ، ولا يكون هذا الجسد الثاني أو القالب الثاني بكلمة أصح إلا متفقاً مع الحياة التي أعدها الإنسان لنفسه بأعماله وأفكاره وميوله وعواطفه في حياته الأولى ، فإن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه سيئة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات سيئة ، فان روحة ستنتقل إلى طبقة مبتذلة من طبقةالحيوانات أو النباتات،

وأما إن كانت أعماله وأفكاره وميوله وعواطفه صالحة ولتأثيرها قد حدثت فيه مؤهلات واستعدادات صالحة فان روحه سترتقي إلى طبقـة من الطبقات العليا . وجملة القول إنه ليس الجزاء ولا العقاب بموجب هذه العقيدة إلا في هذه الدنيا ، وفي عالم الأجساد هذا . كأن الأرواح إنما تأتي إلى هذه الدنيا مرة بعد مرة بقوالب متغيرة لتنال الجزاء أو العقاب على أعمالها السابقة .

لقد مر على الإنسانية حين من الدهر كانت فيـه هذه العقيدة قد لاقت رواجاً وقبولاً عظيماً عاماً بين أهل الأرض . كان يقول بها (فيثاغورس وانبذ قلس)وغيرهما من فلاسفة اليونان قبل المسيح بقرون. وكانت لها كلمة مسموعة في الرومان قبل المسيحية، ولها آثار توجد في تاريخ مصر القديمة ، وقد دخلت حتى في اليهود لعوامل خارجية . ولكنهـا في أيامنا الحاضرة لا توجد إلا في ديانات هندية الأصل كالبرهمية ، والبوذية ، والجينية ، أو في أمم همجية ، أو بعض همجية تقطن في غرب إفريقيا وجنوبها ومدغاسكر واستراليـا الوسطى ، وأندونيسيا ، وأوشيانا ، وشمال أمريكيا وجنوبها ، وقد نبذتهـا وخرجت عليها سائر الأمم المتحضرة في العالم لأن المعلومات التي قد أحرزها الإنسان عن الدنيـا وحياتها لتقدم العلم والعقل تأبى أن تؤيد نظرية من النظريات التي تقوم على أساسها عقيدة تناسخ الأرواح .

حتى إننا إذا ما نظرنا في تاريخ هذه العقيدة في الديانات الهندية الأصل ، علمنا بدون ما ريب أن لم يكن لهـا أي وجود في الهند الويديكية القديمة وأن الذي كان يعتقده الآريون في ذلك الزمان هو أن الإنسان بعدما يفارق الحياة الدنيا يعود إلى حياة أخرى هي راحة ونعمة للذين قد ضلوا الصالحات في حياتهم الدنيا ، وعذاب أليم للذين قد عملوا فيها السيئات . ثم إن هذه العقيدة دخل عليها التغير دفعة واحدة ، ومن ذلك أننا نجد من بين كتب الهند في طورها الثاني كتباً توجد فيهـا عقيدة تناسخ الأرواح بصورة مذهب فلسفي . وإلى الآن ما تم التحقيق حول منشأ هذا التغير . يقول البعض إن هذه العقيدة إنما دخلت في ديانة الآريين عن طريق (دراور) أي أمم الهند القديمة ، ويقول البعض الآخر ان كان لها وجود في الطبقات السفلى من الآريين أنفسهم ومنهـا أخذها الفلاسفة البراهمة فيما بعد وأقاموا عليها بناء كاملا للأوهام والظنون والقياسات وعلى غرار هذا فقد كانت ديانة بوذا في أطوارها الأولى خالية خلواً تاماً من فكرة ونظام تناسخ الأرواح كما هما يوجدان الآن في كتب الديانةالبوذية،والذي نعلمه بدراسه الكتب القديمة الأصلية لهذه

الديانة أن عقيدتها في أطوارهـا الأولى تقوم على أن الوجود إنما هو نهر يجري متدفقـاً بالتغير والانقلاب بصفة غير منقطعة » وهذه العقيدة نفسها ظهرت فيما بعد بصورة عقيدة قائلة : بأن ليس في العالم كله إلا روح واحدة هي التي تشكل دائماً بالأشكال المختلفـة ، وتغير لنفسها القوالب تلو القوالب . ويفيد هذا أن العلم الذي كان حصل لأمم الهند القديمة من مصدر الوحي والإلهام في بدء أمرها بدلته هذه الأمم وأدخلت عليه الأوهام والظنون من تلقاء نفسها واخترعت – هكذا من دونه ديانة فلسفية لم تكن إلا ثمرة لأوهامها الباطلة وظنونها الكاذبة .

عقيدة تناسخ الأرواح في ميزان النقد العقلي :

إنه لا مجال هنا لإطالة البحث في عقيدة تناسخ الأرواح ، لكن ممـا يكفي الإشارة إليه لبيان أن النظريات والتصورات التي يقوم عليها بناؤها كلها تصادم العقل في صميمه ، وتنافي كل معنى العلوم التي نالها الإنسان حتى الآن بالنظر في الدنيا وحياتها .

إنه لما يعتقده القائلون بتناسخ الأرواح أن الإنسان إنما ينال جزاء أعماله في هـذه الدنيا نفسها وذلك بصورة أنه يرتقي إلى الطبقات العليا بفضل أعماله الصالحة ، ويتردى إلى الطبقة السفلى من جراء أعماله السيئة فهو – مثلاً – إذا كان قد عمل السيئات في حياته يتردى إلى الطبقات الحيوانية أو النباتية والحيوان أو النبات إذا كان قد عمل الصالحات في حياته يرتقي إلى الطبقات الإنسانية . ومعنى هذا أن ليس الحياة الحيوانية والنباتية إلا نتيجة لسوء أعمال الحياة الإنسانية وأن ليست الحياة الإنسانية إلا نتيجة لصلاح أعمال الحياة الحيوانية أو النباتية أو – بكلمة أخرى – إن أفراد النوع البشري الذين يوجدون الآن على وجه الأرض إنما هم أفراد النوع البشري لأنهم قـد عملوا الصالحات في حياتهم الحيوانية أو النباتية وإن أفراد النوع الحيواني أو النباتي الذين يوجدون الآن على وجـه الأرض إنما هم أفراد النوع الحيواني أو النباتي، لأنهم قد عملوا السيئات في حياتهم الإنسانية .

وللإيمان بهذه العقيدة لا بد من الإيمان بعدة أمور أخرى كلهـا متنافية مع العلم والعقل فمثلاً :

١ – إن دورة التناسخ هذه كحلقة مفرغة لا يعرف مبدؤها من منتهاها لأنه من اللازم لكون الإنسان إنساناً بحكمها أن يكون في حياته السابقة حيواناً أو نباتاً، ولا بد لكون

الحيوان حيواناً ، ولكون النبات نباتاً أن يكون في حياته السابقة إنساناً وهذه مسلسلة واهية يأبى العقل أن يسلم بصحتها .

٢ - إن دورة التناسخ إن كانت أزليـــة أبدية فلا بد من الاعتراف بأن لا تكون الأرواح التي تنتقل في أجساد بعد أجساد ، وتستبدل القوالب مرة بعد مرة أزلية أبدية فحسب بل تكون كذلك المواد التي تهيأ لها القوالب في كل مرة أزلية وأبدية ،وأن يكون كل شيء من الأرض والنظام الشمسي والقوى العاملة في هذا النظام أزلياً وأبدياً ، ولكن الذي يدعيه العقل وتشهد بصحته التحقيقات العلمية أن ليس نظامنا الشمسي أزليـــاً ولا أبدياً .

٣ - من اللازم الاعتراف بأن كل الخصائص التي توجد في النباتات والحيوانات، وأفراد النوع البشري هي خواص أجسادهم وما هي بخواص نفوسهم ،لأن النفس التي كانت مالكة لقوى العقل والفكر في هذا الإنسان ، أصبحت لا تعقل لما انتقلت إلى قالب الحيوان ، وسلبت السكينة حتى قوة الحركة الإرادية لها عندما انتقلت إلى قالب النبات .

٤ - إن كلمة الصلاح أو السوء إنما تطلق في حقيقـــة الأمر على أعمال تعمل بالقصد والفكر ، فمن الممكن على هذا الاعتبار أن تكون أعمال الإنسان صالحـة أو سيئة ، ومن الممكن أن يترتب عليها الثواب أو العقاب . أما بموجب الاعتقاد بتناسخ الأرواح فلا بد من الاعتقاد بأن الحيوانات والنباتات قادرة على العمل بجسمها وبفكرها .

٥ - إن الحياة بعد كل حياة إذا لم تكن إلا نتيجة لأعمالنا في الحياة الجارية فإن ذلك يستلزم أن لا تكون نتيجة أعمالنا السيئة إلا سيئة ، وما دمنا قد نلنا هذه النتيجة السيئة في حياتنا الأولى فكيف أصبح من الممكن أن تصدر أعمال صالحة عن هذه النتيجة السيئة؟ من اللازم أن لا يصدر عنها إلا أعمال سيئة ، وأن تكون نتيجتها في الحياة الثالثة أسوأ منها في الحياة الثانية ، وهكذا لا بد أن تتردى روح إنسان فاسق في دورة التناسخ من طبقة سافلة إلى طبقة أسفل منها ، ومن المحال أن يصبح الحيوان أو النبات إنساناً . فلنا أن نتساءل هنا أن الذين هم أفراد النوع البشري الآن قد أصبحوا من النوع البشري نتيجة لأعمال صالحة من أية طبقة قد برزوا إلى حيز الوجود ؟

تأثير عقيدة تناسخ الأرواح في الحياة المدنية :

وهناك إلى هذه الأسباب أسباب كثيرة أخرى من المحال بناء عليها أن يقبل العقـل

السليم عقيدة تناسخ الأرواح ويقول بصحتها . لأجل هذا فإن الإنسان على قدر ما نال من التقدم والرقي في ميدان العقل والعلم صارت تبطـل في نظره عقيدة تناسخ الأرواح ، إلا أنها ما بقيت الآن – كما قلت – إلا في أمم همجية أو متخلفـة جداً في ميدان الرقي العلمي والعقلي ومن الحقيقـة – مع هذا – إن هذه العقيدة مثبطة للهمم ، ومميتة لروح التقدم ، ومنها قد نشأت عقيدة (أهنسا) التي هي مدمرة بكل معنى الكلمة لحياة الإنسان الفردية والجماعية ، بحيث إن أمة إذا أصبحت قائلة بها انعدمت فيها روح الإقدام والجرأة والشجاعة والجندية ، واضمحلت فيها القوى الجسدية ، وأصبحت محرومة من كل ما يغذي فيها القوى الجسدية . وبذلك لا يضعف أفرادها باعتبار القوى الجسدية فحسب ، بـــل يضعفون كذلك باعتبار القوى الفكرية والذهنية ،ويكون من نتيجة هذا الضعف المضاعف أن تضرب عليها الذلة والمسكنة ولا تحيا في الدنيا إلا مغلوبة على أمرها وأخيراً إما أن تنقرض عن صفحة الوجود ، أو تنضم إلى أمم غالبة قوية أخرى .

والمضرة الأخرى لعقيدة تناسخ الأرواح أنها تعادي المدنية والحضارة وتجر الانسان جراً إلى الرهبانية وترك الدنيا . إنه لما يعتقده القائلون بهذه العقيدة أن الشهوة هي أصل كل فساد في الأرض ، وهي التي تلوث الروح بالذنوب والآثام ، ولأجلها تنتقل الروح من قالب إلى قالب ، وتذوق وبال أعمالها مرة بعد مرة ، فالإنسان إذا أودى بها وقضى عليها ولم يشغل نفسه بمشاغل الدنيا وشواغبهـــا ، فلروحه أن تنال الخلاص من دورة التناسخ ويقولون : ليست هناك سبيل أخرى للخلاص من دورة التناسخ غير هذه ، لأنه من المحال إذا انشغل الإنسان بمشاغل الدنيا وشواغبها وشئونهـا الخلابة أن يأمن على نفسه الافتتان بالدنيا ، والاسترسال وراء شهواتها وملاهيها ، والنتيجة اللازمة لذلك (يقولون) أن من أراد لنفسـه الخلاص من دورة التناسخ فعليـــه أن ينعزل عن الدنيا ، ولا يسكن إلا في الغابات ، ورؤوس الجبال وكهوفها ، وأن من لم يفعل ذلك فعليه أن ييأس من الخلاص من دورة التناسخ ، ويستعد للانضمام إلى طبقات الحيوانات والنباتات .. فهل لهذه الفكرة أن تكون مساعدة للانسان على ترقية المدنية والحضارة بحال ؟ وهل لأمة أن تنال الرقي والتقدم في الدنيا إذا آمنت بهذه العقيدة ؟

لا شك أن عقيدة تناسخ الأرواح ببعض وجوهها أقل سوءاً من الاعتقـاد بأن الموت إنما هو فناء محض ، لأن الإنسان توجد فيه بحكم الفطرة رغبة في البقـاء إلى الأبد ، فعسى

أن تبرد فيه هذه الرغبة بعقيدة تناسخ الارواح إلى حد ما ، ومع هذا فإن هذه العقيدة توجد فيها فكرة الجزاء والعقاب والنتائج المرضية وغير المرضية للأعمال فعسى أن تكون هذه العقيدة على أساس هذه الفكرة سنداً يستند إليه قانون خلقي صالح قوي .. ولكن من الحقيقة التي لا مجال فيها للريب والمكابرة كما قلنا مراراً من قبل ، إن عقيدة التناسخ إذا كانت متنافية مع العلم والعقل ، كانت عقبة في سبيل تقدم المدنية والحضارة ، فليس لها مجال أن تؤثر على ذهن الإنسان وتتملك عليه عقله وعاطفته بحيث تظل قائمة بقوة سواسية في كل مرتبة من مراتب الارتقاء العلمي والعقلي وفي كل مرحلة من مراحل تقدم المدنية والحضارة. والأمر إذا كان كذلك فإن بقاء هذه العقيدة كنظرية فلسفية محضة في بطون الكتب لا يكاد يرجع بجدوى على نظام الأخلاق في ثباته واستمراره وخلوده ، لأنها لا ترجع عليه بجدوى إلا في ما إذا خرجت من الكتب واستولت على القلوب والأذهان واعتقد بها الناس اعتقاداً جازماً قوياً. ومع هذا فإن هذه العقيدة تفقد قيمتها الخلقية من حيث نتيجتها النهائية لأن الإنسان إذا كان على يقين من أن دورة التناسخ إنما تدور كما يدور الدولاب في الآلة لا بد أن تظهر النتيجة المقررة فيها لكل فعل من أفعاله ، وليس له مجال أن يغير تأثير هذا الفعل ونتيجتها بتوبة ولا استغفار ولا كفارة ولا بأي شيء آخر.. إذا كان الإنسان على يقين من هذا فإنه إذا اقترف الذنب مرة يقع في سلسلة الذنوب والمعاصي إلى آخر أيام حياته ، ويرسخ في ذهنه أنه ما لم يكن باستطاعته أن يخلص نفسه ولو بأية حيلة من الحيل من الانقلاب إلى حيوان أو نبات فما له أن يكبح جماح نفسه ولا يستنفد ما يملك من الجهود لإشباعها بلذات حياته الإنسانية ومباهجها ؟

عقيدة الحياة الآخرة :

إنك حتى الآن قد عرفت ما يرى في عاقبة الدنيا والإنسان ونهاية أمرهما دينان من أديان البشر وقد عرفت كذلك أن هذين الدينين لا يصحان عقلاً ، ولا يردان بشيء مقنع على ما ينشأ في ذهن الانسان من الأسئلة الفطرية عندما يرى في هذه الدنيا آثار الاختلال والزوال والفناء والتهدم ، ولا يصلحان ليكونا سنداً يستند إليه نظام للأخلاق صحيح قوي ، وتعال لنعرفك الآن على ما يرى في هذا الشأن دين آخر :

يقول هذا الدين:

١ – كما أن لكل شيء في الدنيا أجلاً ينتهي إليه لا محالة بصفته الفردية ، وكما أنه مع

انتهائه إليه تظهر فيه آثار الفناء والزوال والاختلال، كذلك إن لنظام العالم الذي نعيش فيه أجلاً لا بد له أن ينتهي إليـــه . ولا بد مع انتهائه إليه أن يعتريه الفناء والزوال والاختلال ، ويحل محله نظام آخر تكون قوانينه الطبيعية مختلفة عن قوانينه الطبيعية .

٢ – وأن الله سبحانه وتعالى بعد اختلال هذا النظام سيقيم محكمته التي سيحاسب فيها عباده حساباً دقيقاً ، وأن الإنسان يومئذ سينال حياة جسدية جديدة ، ويتمثل بين يدي ربه ، وهناك يوزن ويفحص بكل دقة ما قد كسب من الأعمال في حياته الأولى ،ويجزى عليها جزاءاً أوفى ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

٣ – وأن ليست حياة الإنسان الدنيوية هذه إلا مقدمة لحياته الآخرة فهي حيـــاة طارئة مؤقتة وتلك حياة خالدة سرمدية ، وهذه ناقصة وتلك كاملة ، وأن الأعمــال لا تترتب كل نتائجها في هذه الحياة المؤقتة ، وستترتب على أكمل وجوهها في الحياة الآخرة ، فعلى الإنسان أن لا يطمح ببصره إلى مجرد النتائج العاجلة الناقصة ، بل الخادعة في معظم الأحيان ، التي تترتب على أعماله في هذه الحياة الدنيا ، وإنما عليه أن يحدد القيم لأعمــاله على اعتبار هذه السلسلة الكاملة بنتائج الأعمال وثمراتها .

والدين الذي يقول بهذا هو الدين الذي قد عرضه الأنبياء عليهم السلام، ويدعو إليه القرآن ويقيم الدلائل على صحته وحقّانيته . وقبل أن نتكلم على نتائج هــذا الدين في الاخلاق ومرتبته وأهميته في الحضارة الإسلامية يجمل بنا أن نرى ما هي دلائله وبراهينه؟

الطريق الصحيح للتحقيق العقلي :

هل للانسان من حياة بعد موته؟...سؤال إنما يتعلق بما وراء حدود حواسنا وتجاربنا الحسية ، وكل ما نشاهده هو أن إنساناً بينما كان يتنفس ويتحرك بإرادته إلى ما قبل لحظات إذا به قد حرم كل أثر من آثار الحياة ، وقد غاب عن جسده شيء هو الذي كان قد هيأ لهذه المادة الصماء غير النامية وغير المتحركة قوة النمو والحركة . أما أين قــد ذهب ذلك الشيء ؟. وهل إنه لا يزال موجوداً أم قد انعدم بعد انفصاله من الجسد وهل سيرتبط بهذا الجسد أو بجسد آخر مثله مرة أخرى أم لا؟..لا نستطيع الجواب على هذا السؤال بالنفي ولا بالإثبات معتمدين على حواسنا أو عيوننا التجريبية لأن ذلك الشيء بالذات مـا كنا أحسسنا به من قبل ولا نحسه الآن. فمما يجب أن نكون على ذكر منه منذ بداية البحث: أن هذا السؤال لا علاقة له أصلاً بالعلوم التجريبية ، لأن هذه العلوم إن كانت لا تستطيع أن تجيب عليه بالإثبات ، فإنها لا تستطيع كذلك أن تجيب عليه بالنفي سواء بسواء ، غاية

ما لها أن تقول هو أنها لا تعرف ماذا يكون بعد الموت ، ولكنها إذا جاءت عن طريق اللاأدرية الخالصة وقالت إنها ما دامت لا تعرف ماذا يكون بعـد الموت ، تعرف أنه لا يكون شيء بعد الموت ، فلا يكون ذلك منها إلا استهزاء بالعقل واعتداء لحدوده ..

والوسيلة الاخرى عندنا للعلم بعد الحواس هي التفكر ، إذ أن الإنسان دائماً يأبى أن يقيد نفسه بالمحسوسات والمرئيات ومن عين ما تقتضيه فطرته أن يستعين بما فيه من قوى الفكر والتأمل ويحاول الكشف عن الحقائق المستترة وراء المحسوسات والمرئيات ، وهذا الجهد الفكري هو المعبر عنه بـ (التفكر) وله طريقان :

أولهما : أن تغمضوا أعينكم عما في الآفاق وفي أنفسكم من الآثار والآيات وألا تقيموا لها ما تستحق من الوزن ولا تستخرجوا النتائج (هكذا) إلا من المقدمات العقلية ، ولا تتبعوا إلا الاحكام العقلية فهذا ميدان الفلسفة القياسية المجردة ، وهو أصل كل فساد في الأرض ، ومنه نبعت كل المذاهب الفلسفية التي إذا ارتبك فيها الإنسان مرة فإنه قلما يجد سبيلاً للخروج من مجاهل الفكر والخيال ، والتي عليها قامت تلك العقائد المتضاربـة عن الله وملائكته ، ونظام العالم والحياة بعد الموت التي إنمـا هي نتيجة التخبط في الظلام واتباع الوهم والظن والخرص والتخمين .

وثانيهما : أن تفتحوا أعينكم وتشاهدوا ما في الآفاق وفي أنفسكم من الآثار الحاملة للمشعل في الطريق إلى الحقيقـة ، وتتوصلوا باستعانة العقل السليم والفكر الصحيح إلى الحقائق الكامنة في أعماق هذه الآثار . وفي هذا الطريق تسير الفلسفة جنباً الى جنب مع العلوم التجريبية ، وهذا أيضاً وإن لم يكن طريقاً يقينياً للوصول إلى الحقيقة ولكنه — بصرف النظر عن الهداية السماوية — هو الطريق الوحيد لدى الأنسان للوصول إلى الحقيقة وبه وحده من الممكن أن يصل إليها أو يدنو منها على الاقل ، بشرط أن يكون على قوة غير عادية للمشاهدة والاعتبار ، وتكون قواه للإدراك لطيفة مرهفة ، وتكون به أهلية كافية للفكر والتأمل ، وعلى هـذا الامتزاج بين المشاهدة والفكر ، يتوقف رقي الإنسان وتقدمه في الحكمة النظرية. إن النظريات التي يقوم على أساسها اليوم بناء الحكمة وإن المبادىء التي لا يخطو طالب العلوم التجريبية خطوة بدون الاعتقاد بها .. ما منهـا نظرية واحدة ولا مبدأ واحد يقوم على مجرد المشاهدة والتجربة ، بل الذي تقوم عليه كل نظرية من هذه النظريات ، وكل مبدأ من هذه المبادىء هو ذلك القياس العقلي الذي تستخدم فيه المشاهدات والتجارب كالمواد الاساسية . ومن ذلك أن ليس قانون الفطرة ، ولا قانون

الجاذبية ، ولا سلسلة العلة والمعلول ،ولا نظرية النسبية...ولا قانون الاختيار الطبيعي، ولا أي قانون أو مبدأ آخر قد آمن به كبار الحكماء والعقلاء وعلماء العلوم الطبيعية ... إلا نتيجة للفكر في مشاهدة الآثار والمظاهر ، واستخدام القياس العقلي ، وإلا فإن أحداً لم يشاهد هذه القوانين ولا هذه المبادىء مشاهدة حسية .

ثم إن النتائج التي يستخرجها أحد من الحكماء بمشاهدته وقياسه يكون على يقين من صحتها على قدر ما يكون أحد من عامة الناس على يقين من صحة شيء إذا شاهده بأم عينه مشاهدة حسية ، ولكن على الرغم من هذا فإن هذا الحكيم مهما كان عظيماً ماهراً لا يستطيع أن يجبر على الإيمان بهذه النتائج أحداً غيره إذا كان ينكرها إنكاراً ، لأن أحداً ما لم يشاهد الآثار والمظاهر بذلك النظر الخاص الذي قد شاهدها به ذلك الحكيم نفسه ، ولم يستخدم في ذلك من الفكر والروية والتأمل ما قد استخدمه هو لا يستطيع بحال أن يتوصل إلى هذه النتائج . أما عامة الناس فلا سبيل لهم للدخول في عالم الحكمة وإحراز الرقي والتقدم فيه إلا واحدة هي أن يؤمنوا عن ظهر الغيب بالنتائج التي قد استخرجها حكيم يعتمد على حكمته وبصيرته دون أن يكونوا بأنفسهم قد توصلوا الى النتائج بمشاهدتهم وقياسهم .

رسخ في ذهنك هذه المقدمة فإنه لا بد أن تكون على يقين من صحتها إذا ما أردت أن تفهم بيان القرآن واستدلاله في ما يتعلق بعالم ما وراء الطبيعة . والحقيقة أن كثيراً من الأغلوطات والمفاهيم الخاطئة لا تنشأ في ذهن الإنسان إلا لعدم رسوخ هذه المقدمة في ذهنه..

اعتراض المنكرين للحياة الآخرة .

إن القرآن لما عرض على الناس عقيدة الحياة الآخرة ودعاهم إلى الإيمان بها ، ما كان حجة منكريها في ذلك الزمان إلا عين حجة منكريها في زماننا الحاضر، وذلك أن هذه هي الحجة الوحيدة التي يستطيع أن يحتج بها منكرو هذه العقيدة في كل مكان وزمان ، وخلاصتها : أن الحياة بعد الموت أمر لا يقبله العقل والقياس ، إذ كيف لنا أن نومن بأن الذين قد ماتوا وتحولوا إلى عظام ورفات وبليت أجزاء أجسادهم أو تبعثرت في الفضاء والتراب والمياه سيرزقون الحياة مرة جديدة .

« وقالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد » (السجدة ١٠) .

« وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً » (الإسراء ٤٩) .

« أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » (ق : ٣) .

« من يحيي العظام وهي رميم » (يس : ٧٨) .

أسلوب القرآن في الاستدلال :

أما الأسلوب الذي اختاره القرآن للاستدلال في هذا الشأن فهو أنه يدعو الناس قبل كل شيء إلى أن يشاهدوا ما في الآفاق وفي أنفسهم من آيات الله وآثار حكمته ومظاهر قدرته ، ويعملوا فيها الفكر والروية يقول : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (فصلت : ٥٣) .

« أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض » (الأعراف : ١٨٥) .

«وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون»(يوسف ١٠٥).

فالذي تنبه عليه هذه الآيات أنكم أيها الناس لستم من القوة والعظمة بحيث من الممكن لكم أن تروا رأي العين ما لا يأتي تحت حواسكم ، أو تعرفوه على حقيقته بالاعتماد على تجربة من تجاربكم ، غير أنكم اذا فتحتم أعينكم ،ورأيتم آيات الله وآثار حكمته ، ومظاهر قدرته الماثلة أمام أعينكم ليل نهار ، وتفكرتم مع ذلك حتى في خلقكم وأنفسكم ، وبذلتم جهوداً صادقة مخلصة للوصول إلى الحقيقة بالتأمل في كل هذه المحسوسات والمرئيات، فإنه لا بد أن يتبين لكم أن كل ما يقال لكم في هذا القرآن، وعلى لسان الرسول الصادق الأمين هو الحق .

إمكان الحياة الآخرة :

ثم إن القرآن يدعو الناس إلى التفكر والتأمل في ما هو أكثر بداهة وجلاء ، حتى من هذه الآيات والآثار نفسها ، ويستدل به على أن ما ترونه بعيداً عن العقل والقياس ليس ببعيد عنها في واقع الامر ، وإن كان بعيداً عن عقولكم وقياسكم وفي ذلك يقول :

« الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الامر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون » (الرعد ٣) .

« أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها » (النازعات ٢٧) .

وفي هذا استشهاد بآثار الأجرام السماوية على أن الله الذي خلق هذا الكون العظيم

البديع المتسق ، والذي قانونه المهيمن قد شد أكبر سيارة في هـــذا النظام – وأعظم بعددها – لقيوده وأغلاله ، والذي قدرته تحرك هذه السيارات العظيمة بنظام مترابط لا يلحقه خلل ولا انتكاس ولو للحظة من البصر ، والذي قوته قد أقامت طبقات الكون على دعائم غير مرئية وغير محسوسة تعجزون عن ادراكها ... ليس بعاجز عن أن يهلك خلقاً حقيراً مثلكم ثم ينشئه نشأة جديدة ، وإنكم وان كنتم تظنون به هذا الظن فما ذلك منكم الا ظن باطل يقول جل جلاله :

«أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض قادرٌ على أن يخلق مثلهم» (الإسراء ٩٩).

وهو بعدما يدعونا إلى التفكر في آياته وآثار قدرته وحكمته في السماء هكذا، يدعونا الى التفكر في آياته وآثار قدرته وحكمته في عالمنا القريب أي الارض وفي ذلك يقول :

« قل سيروا في الارض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشىء النشأة الآخرة إن الله على كل شيء قدير » (العنكبوت ٢٠) .

« وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » (يس ٣٣) .

« فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الارض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير » (الروم ٥٠) . « ومن آياته أنك ترى الارض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت . إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير »(فصلت ٣٩).
« والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميّت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور » (فاطر ٩) .

وهو بعد ذلك يدعونا إلى التفكر فيما قد وضع في ذات أنفسنا من آياته وآثار قدرته وحكمته ويستدل بها على قدرته على إحياء الموتى وفي ذلك يقول :

« هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً » (الدهر ١) .

« وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يُميتكم ثم يحييكم ثم اليه تُرجعون » (البقرة ٢٨) .

« إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب » (الحج ٥) .

«قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة»

« قل كونوا حجارة أو حديداً ، أو خلقاً مما يكبرُ في صدوركم فسيقولون من يعيدُنا قل الذي فطركم أول مرة » (الإسراء ٥٠-٥١) .

« ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحما ، ثم أنشأناه خلقـــاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون » (المؤمنون ١٣ – ١٦) .

« ألم يك نطفة من مني يمنى ، ثم كان علقة فخلق فسوى ، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى ، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » (القيامة ٣٧ – ٤٠) .

والقرآن بعد دعوتنـــا إلى التفكر في الآيات والآثار القريبة من مشاهدتناوقياسنا ، يعرض علينا دليلاً قاطعاً له أوثق ما يكون من العلاقة بعقلنا العام .

يقول إن إخراج الأحياء من العدم إلى عالم الوجود أصعب من خلقها مرة أخرى على صورتها الأولى بعد افتراقها وانتشار اجزائها . فالذي لم يعجز عن هذا العمل الأصعب ، كيف له أن يعجز عن هذا العمل الأهون ؟ . ومثال ذلك أن رجلاً إذا كان قادراً على اختراع السيارة وقد صنعها فعلا ، فهل يتفق مع العقل أن يقال انــــه ليس بقادر على تركيب أجزاء السيارة على صورتها الأولى بعد افتراقها وفكاكها ؟ عليكم أن تعرفوا قياسا على هذا المثال أن الله بارىء الكون ، وصانع السموات والأرض الذي قد خلقكم من العدم . . .

من السفاهة أن تقولوا بالنسبة له أنه عاجز عن خلقكم مرة أخرى بعد موتكم . وفي ذلك يقول عز من قائل :

«أولم يروا كيف يُبديء الله الخلق ثم يعيدُه إن ذلك على الله يسير» (العنكبوت١٩).

« وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه » (الروم ٢٧) .

« أفعَيِينا بالخلق الأول بل هم في لَبْسٍ من خلقٍ جديد » (ق ١٥) .

وبعد ذلك لا يبقى إلا شبهة واحدة هي أن الموتى الذين قد فنيت أجسادهم كيف من الممكن أن ترد إليهم هذه الأجساد عينها ، فمنهم من مات غرقاً في المـــاء وصار كل جزء من جسده غذاء للأسماك وحيوانات الماء الأخرى ، ومنهم من مات حرقاً أو قـــد أحرق بعد الموت وتحول كل جسده إلى رماد ودخان ، ومنهم من دفن في الأرض وامتزج كل جزء من جسده بالتراب ، فكيف من الممكن أن يعاد إليـــه جسده الأول وتنفخ

فيه روحه الأولى ؟ .

هذه الشبهة قد حاول الناس دفعها بقولهم إنه ليس من اللازم لإعطاء الروح الحياة الجسدية أن يعاد إليها جسدها الأول إذ من الممكن أن تعطى جسداً آخر مشابهاً لجسدها الأول. أما القرآن فيقول إن الله قادر أن يعيد إليها عين جسدها الأول لأن أجزاء جسدها الأول ما انعدمت ، وإنما هي موجودة على صورة مبعثرة إما في الفضاء أو في السماء ، أو في التراب ، أو في أجساد النباتات والحيوانات ، أو أجرام المعادن، وأن الله الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويعلم موضع كل جزء فيهما له قدرة تامة على أن يجمع هذه الأجزاء المبعثرة مرة أخرى ، ويخلقها على صورتها الأولى :

« قد علمنا ما تنقص الأرض منهم وعندنا كتاب حفيظ » (ق ٤) .

« وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) (الأنعام ٥٩) .

والمقصود من كل ما قيل في هاتين الآيتين رفع الاستبعاد الذي ينكر الناس على أساسه الحياة الآخرة . إنه ليس السبب الحقيقي في إنكارهم أنهم قد علموا على وجه قاطع إيجابي ... بتجربة أومشاهدة أو بوسيلة أخرى من وسائل العلم اليقيني أن لا حياة للإنسان بعد موته ، وإنما الأساس الذي يقوم عليه إنكارهم أن عقلهم ضيق لا يتسع لتصور البعث بعد الموت ، وإنهم ما شاهدوا منظره بأعينهم ، وإنهم معتادوا الرؤية أن من مات مرة لم يرجع إلى الحياة ، لأجل هذا إذا قيل لهم إن الذين قد ماتوا ستعاد إليهم الحياة رأوا في هذا الأمر المخالف لعادتهم أمراً مستبعداً لا يتفق مع العقل والقياس ، ولكن تقدموا خطوة أخرى في سبيل الفكر والتأمل يزل عن نفوسكم هذا الاستبعاد والاستغراب ، وتروا أن ما كان محالا من قبل قد أصبح من الممكن الآن . إن الأمور التي ترونها الآن ممكنة بل واقعة إنما السبب في كونها كذلك أنكم معتادون لمشاهدة وقوعها . إن انشقاق البذرة في بطن الأرض وظهورها بصورة شجرة عظيمة ، وإن دخول قطرة من الماء في الرحم وخروجها منه بصورة إنسان . وإن تولد الماء باجتماع غازين ، وتحوله إلى البخار ، وتحول البخار إليه بترتيب خاص مرة بعد أخرى . وإن جريان مئات الملايين من النجوم السيارة كالكرات في فضاء العالم الواسع ، وارتباط بعضها ببعض بدون ما

علاقة مادية مرئية ، بحيث لا يدب دبيب التغير والانقلاب في نظامها للحركة والدوران .. أنتم معتادون لرؤية كل هذه الأمور ، ولذا لا ترون فيها ما يدعو إلى العجب والحيرة ، وإنما ترونها أموراً عادية ، ولكن لو كنتم لا تشاهدونها ، وكنتم مستأنسين بنظام آخر غير نظامها ، لرأيتم أنها أبعد ما تكون عن العقل والقياس ، وأنكرتم إمكانها بكل شدة . وهب أن المريخ لا تنبت فيه الأشجار ، وعلى هذا إذا قيل لسكانه إن بذرة صغيرة حينما تدفن في الأرض تخرج منها شجرة باسقة تكون أعظم من جرمها الابتدائي بآلاف بل بمئات الآلاف من المرات ، ثم تتوالد فيها آلاف مؤلفة من البذور مثلها ... إذا قيل ذلك لسكان المريخ لم يكن عجبهم منه أقل من عجبكم من البعث بعد الموت ، ولا بد أن يقولوا باستحالته كما تقولون باستحالة البعث بعد الموت ، ولكن من الظاهر أن ليست هذه الفتوى بعدم الأمكان بناء على العلم وإنما هي بناء على الجهل ، وليست هي بنتيجة لبعد النظر وحصافة العقل ، وإنما هي نتيجة لقلة النظر وقصور العقل . وما استبعادكم أنتم للبعث بعد الموت إلا مثل هذا ، إنكم إذا أدركتم حقيقة استبعادكم ، علمتم أحسن علم أن شيئاً إذا كان بعيداً عن عقلكم وقياسكم فما بعده هذا بدليل كاف على استحالته وعدم إمكانه في واقع الأمر ، أو لا ترون أن شيئاً من الأشياء التي يخترعها الإنسان اليوم كانت بعيدة عن عقله وقياسه قبل مئة سنة ، ولكن الذي قد شهدت به الحوادث أن لم تكن هذه الأشياء التي يراها الإنسان اليوم بعيدة عن عقله وقياسه سوف تخرج إلى عالم الظهور على يد الإنسان نفسه بعد قرن أو قرنين ، وسوف يثبت ظهورها إن لم تكن مستحيلة ولا غير ممكنة ... إذا كانت هذه هي حقيقة العقل وحقيقة بُعد الأشياء عنه أو قربها منه ، فلا يصح الحكم على شيء بأنه مستحيل أو غير ممكن لمجرد أن عقل الإنسان المحدود لا يتسع له .

إن أول خطوة لإثبات شيء إذا كان خافياً على النظر وكان وراء حدود الحواس ، أن يثبت إمكانه . فالقرآن بإزالة استبعاد الحياة الآخرة بأسلوبه البليغ قد أثبتها أمراً ممكناً .

والخطوة الثانية بهذا الشأن أن تثبت حاجة الإنسان إلى ذلك الشيء حتى يعترف به عقله ويقول : إن وجوده أولى من عدمه .

نظام العالم قائم على الحكمة :

إن إثبات حاجة الإنسان إلى الاعتقاد بالحياة الآخرة يتوقف – في حقيقته على جواب

السؤال التـــالي : (هـل إن هذا الكون صنعه حكيم مدبر أم أنه نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق دون ما حكمة ولا تدبير ؟ .)

يقول الإنسان المادي الدائن بالعلوم التجريبية : إن هذا الكون ما صنعه حكيم مدبر وإنما قد نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق ، وإنما يجري بكل أجزائه – بما فيهـا الإنسان – كآلة متحركة بذاتها ، وفي اليوم الذي ينتهي فيه التعاون والتعامل بين المادة والطاقة (Energy) يختل فيه هذا النظام . من الظاهر أن نظاماً مثل هذا اذا كانت الطبيعة العمياء هي التي تسيره بدون ما علم ولا عقل ولا شعور ولا إرادة ولا حكمة ، فمن العبث أن يبحث فيه عن نوع من الغاية والهدف ، لذا فإن العلوم التجريبية المادية مـا أخرجت من حدود وظيفتها التعليل المبدئي (Tebological Caumtion) لآثار الكون وحكمته فحسب بل قالت ان هذا الطريق للفكر ما هو إلا لغو وسخافة ، وقالت ان هذا الكون وكل موجود من موجوداته ، وكل فعل من أفعاله هو بدون ما غاية ولا هدف. فما العين للنظر وانما النظر نتيجة لترتيب خاص للمادة يوجد في العين ، ومـــا المخ بأداة للفكر والتأمل والشعور والعاطفة ، وانما تفرز الأفكار والعواطف والإرادات من مادته كما تفرز الصفراء من الكبد ، ويفرز البول من الكلية ، فمن الخطأ (تقول هذه العلوم) أن تقدر الأعمال الطبيعية الصادرة عن الأشياء غايتها والمقصود من وراء تركيبها وأن يبحث في وجودها عن حكمة أو تدبير أو عقل .

إذا آمن الإنسان بهذه النظرية واعتقد صحتها فلا مبرر البتة لأن يشعر في نفسه بحاجة إلى حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، لأن الكون إذا كان كل نظامه إنما يجري في نظره بدون ما غاية ولا هدف على يد طبيعية عمياء لا علم لها ولا شعور ، فإنما هو بمنزلة لعبة كلعب الأطفال ، وما كل موجود من موجوداته إلا عبث سيفنى كما يفنى كل عبث بعد انتهائه ، ومن المستبعد أن تكون طبيعة عمياء مثل هذه متصفة بالعدل فيرجى منها حساب أو عدل ، وإذا فرضت أنها متصفة بالعدل فما دام الإنسان إنما يلعب في يدها كلعبة لا تملك لنفسها إرادة ولا اختيار فضلاً عن أن تعمل شيئاً بإرادتها واختيارهـا فاللازم أن لا تكون عليه تبعة أي عمل من أعماله الصالحة أو غير الصالحة ، كما لا تكون على السيارة تبعة سيرها في أية جهة صحيحة أو غير صحيحة ، وإذا ارتفع السؤال عن التبعة فمن العبث السؤال عن العدل أو الظلم ، وعن الجزاء أو العقاب في هـــذه الحياة

الدنيا نفسها ، فضلا عن أن يعترف له بحياة أخرى بعد هذه الحياة .

ولكن هذه النظرية لا تتفق مع العقل ، وحتى الآن لم يعرض على صحتها دليل عقلي ولا شهادة علمية ، ولباب كل ما قيل حتى الآن في الدفاع عنها أننا لا نرى أحدا قد خلق هذا الكون ويعنى بتسييره ، ولا نعقل ما إذا كانت ثمة غاية من وراء خلقه ، وإنما نراه سائراً بدون ما صنع قادر ، وليس من الممكن أن ندرك غاية لسيره كما أننا لسنا بحاجة إلى إدراكها ... ولكن ليس الجهل بالعلة الفاعلية أو العلة الغائية دليلا على عدمهما . هب أن طفلا يرى آلة الطبع تسير وتعمل ولا يدرك لتحقيق أية غاية قد سيرت هذه الآلة فيظنها مجرد لعبة سائرة بدون ما غاية ولا هدف . يرى أن هذه الآلة كما ينشأ منها الصوت ، وتتحرك أجزاؤها ، وترتجف الأرض من تحتها ، كذلك تخرج منها الأوراق مطبوعة نتيجة لحركتها ، ولا يعقل أن فعلا واحداً من هذه الأفعال أي : خروج الأوراق منها مطبوعة هو الغاية المقصودة من وراء هذه الآلة ، وما سائر أفعالها إلا نتائج طبيعية لحركتها ، وما نظره من القدرة على المشاهدة بحيث يحس ما في أجزائها من التركيب والترتيب والنظام ، ويعقل أن الصورة التي قد خلق عليها كل جزء من أجزائها ، وأن الموضع الذي قد وضع فيه ، هي الصورة المتناسبة لأدائه وظيفته في جسد الآلة ، أن لا يخلق إلا على تلك الصورة ، ولا يوضع إلا في ذلك الموضع ، فبناء على كل ذلك يظن ذلك الطفل الغبي أن تلك الآلة إنما نشأت باجتماع قطع من الحديد على سبيل الصدف والاتفاق ، ولا يعرف برؤية أفعال الآلة وترتيب أجزائها أن الذي قد صنعها لا بد أن يكون حكيماً قادراً ، فإنه لحكمته وقدرته قد صنعها بأتقن أسلوب وعلى أقوم صورة بحيث ليس جزء من أجزائها عبثا ولا غير متناسب مع وظيفته .. قل لي بالله ربك إن ذلك الطفل غير العاقل إذ أقام على مشاهدته هذه الآلة من آلات الطبع نظرية قائلة بأن الآلة ليست فيها علة فاعلية ، ولا علة غائية ، ولا قد صرف في صناعتها شيء من الحكمة ، ولا قد روعيت فيها غاية من الغايات ، فهل لرجل عاقل بالغ أن يعترف بأن ذلك الطفل قد أقام نظرية صحيحة في ما يتعلق بحقيقة تلك الآلة ؟ ..

وكل هذا إن كان غير صحيح بشأن آلة الطبع فأولى به أن يكون غير صحيح بشأن هذا الكون العظيم الذي تدل كل ذرة فيه على صانعه وقدرته وإرادته وحكمته . ومهما يقل الطفل الناقص العقل ، القصير النظر ، فما لرجل عاقل اذا شاهد ما في هذا الكون من الآيات والآثار بعين العبرة والبصيرة أن يشك ولو للحظة واحدة أنه من المحال أن

ينشأ ويسير بدون ما حكمة ولا علم ولا إرادة ، نظامٌ مثل هـــذا وهو من الإحكام والاستقامة والتناسب والاتساق بحيث ليس فيه شيء عبثاً ، وليس فيه شيء أكثر ممـا تدعو اليه الحاجة ، ولا أقل منه ، وكل جزء فيه موضوع في محله اللائق به كما تقتضيه الحاجة ، ولا يرى في نظامه فتور ولا ضعف ولا نقص .

من المحال أن يكون النظام القائم على الحكمة مهملا بدون ما غاية ، والدلائل التي قد أقامها القرآن الكريم على حاجة الإنسان إلى الحياة الآخرة لا تقوم كلها إلا على الفكرة القائلة : بأن صانع هذا الكون حكيم قادر لا يخلو كل فعل من أفعاله من الحكمة ، ومن المحال أن يعزى إليه شيء لا يجتمع مع الحكمة . يقول القرآن بعد إقامته هذا الأساس لفكر الإنسان :

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثـــاً وأنكم الينا لا تُرجعون فتعالى الله الملك الحق » (المؤمنون ١١٥) .

« أيحسب الإنسان أن يُترك سدى » (القيامة ٣٦) .

« وما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون ، إن يوم الفصل ميقاتُهم أجمعين » (الدخان ٣٨) .

« أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرضَ وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون » (الروم ٨) .

فالذي تشير اليه هذه الآيات أنكم أيها الناس إن كنتم تظنون أن نظام هذا الكون لمجرد أن يبقى سائراً إلى أجل ثم ينعدم بدون ما نتيجة ، فكأنكم تظنونه فعلا عبثاً سخيفاً ، أو لعبة كلعب الأطفال ، ولا تظنونه صادراً عن حكيم قادر أبدا ، وإنكم إن كنتم تعتقدون أن الله هو الذي قد صنع هذا النظام وأن الله حكيم خبير ، فعليكم أن تستعينوا بما قد آتاكم الله من قوة العقل والنظر لتعرفوا أن ليس شيء من موجودات هذا العالم بخارج إلى حيز الوجود بدون ما غاية ، ولا بداخل في حيز العدم بدون مـــا نتيجة ، ولا سيما الإنسان ، فإنه أفضل خلائق الله على وجه الكرة الأرضية ، وشخصيته ذات الشعور هي حاصل هذه الكرة الأرضية ونتيجة كل حركاتها وتحولاتها وتطوراتها ، وقد أوتي العقل والفكر والنظر والفهم وقوة الإرادة والاختيار بكمال حكمة ... من المحال أن تكون الغاية المقصودة من وراء خلقه مجرد أن يعيش في هذه الدنيا عدداً من السنين كآلة

من الآلات ثم يدخل عالم الفناء والعدم بموته . . .

مصير نظام العالم على مقتضى الحكمة :

ولما قد علم أن ليس هذا الكون قد خلق عبثاً ، وليس شيء فيه بدون ما نتيجة . فالسؤال الثاني الذي يثور بهذا الصدد هو : أي مصير آخر غير العدم المطلق عسى أن يكون لهذا الكون على مقتضى الحكمة ؟ . في آيات القرآن جواب تفصيلي على هذا السؤال لا يكاد يسمع به العقل السليم إلا ويطمئن اطمئناناً كاملا . ولكن من اللازم لفهم هذا الجواب أن تكون – أولاً – على بينة من عدة أمور هي :

١ – إن كل ما في عالم الوجود من الآيات والآثار تشهد شهادة ناطقة بأن ليس لهذا العالم من تغير ولا تطور إلا وهو متجه إلى جهة الارتقاء ، وأن ليس المقصود من كل حركة من حركاته ، أو كل دورة من دوراته إلا أن يساق النقص إلى الكمال ، وأن تضفى على الأشياء صورها الكاملة بعد القضاء على صورها الناقصة . .

٢ – وبما أن قانون الارتقاء هذا انما يعمل عن طريق التغير لذا فإن كل كمال أو ارتقاء في هذا العالم لا بد أن يتقدمه فساد أو قل – بكلمة أخرى – إنه لما يقتضيه خروج كل صورة جديدة إلى حيز الوجود أن تفسد الصورة السابقة وأن زوال الصورة الناقصة يكون مقدمة لخروج صورة جديدة كاملة إلى حيز الوجود . وهذه التغيرات والتطورات وإن كانت تحصل في هذا العالم في كل حين ، ولكن هناك تغير جلي بارز يحصل بعد تغيرات خفية متعددة ، ويكون هناك في هذا التغير الجلي البارز فساد جلي بارز هو الذي نعبر عنه في عرفنا العام بـ (الموت) أو (الزوال) كما أننا نعبر بـ(العمر) عن المدة الواقعه بين خروج شيء على عالم الوجود وبين موته أو فساده القطعي .

٣ – إن كل صورة من الصور تبغي لنفسها محلا خاصاً يناسبها ويناسب طبيعتها ولا ترضى بأن تسكن محلا لا يناسبها ولا يناسب طبيعتها . فالصورة النباتية – مثلا – لا ترضى بان تسكن جسداً حيوانياً فإنه محل لا يناسبها ولا يناسب طبيعتها . ولا تطلب الصورة الإنسانية غير الجسد والنظام الجسدي الخاص الذي قد خلق الإنسان . وعلى هذا إذا أريد أن يعطى شيء صورة راقية فمن اللازم أن يهدم المحل الذي كان بني لصورته القديمة الناقصة . وأن يبني لصورته الجديدة الراقية محل جديد يناسبها ويناسب طبيعتها .

٤ – اذا فهمت شمول قانون الارتقاء ، وإحاطته بكل أجزاء العالم ، فقد سهل عليك أن تعرف أن هذا القانون كما يشمل كل أجزاء العالم كذلك يشمل نظام العالم نفسه . فالنظام الذي نشاهده الآن لهذا العالم لا ندري كم من نظم قد خلت من قبله منذ بدء سلسلة الخلق والإبداع ، وكم من مراحل الارتقاء التدريجي قد اجتازتها سلسلة الوجود حتى انتهت إلى نظامنا الحاضر الذي نشاهده الآن ، وكذلك ليس نظامنا الحاضر الذي نشاهده الآن بآخر نظام قد انتهت اليه سلسلة الوجود ، ولن تجتازه إلى نظام آخر بعده ، بل لا بد له أيضاً عندما يبلغ آخر كمالاته الممكنة ولا يعود به صلاح لقبول درجة للكمال أعلى أن يتهدم ويقوم على انقاضه نظام آخر يختلف عنه في قوانينه ، ويكون به صلاح لقبول درجات كمال الوجود ومراتبه العليا .

٥ – إننا اذا نظرنا في النظام الحاضر للعالم بعين الجد والاهتمام ، علمنا بدون ما ريب أنه نظام ناقص يحتاج إلى مزيد من الكمال... فما حقائق الأشياء فيه إلا متلوثة بالأرجاس المادية حتى قد نزلت إلى درجة الأوهام ، ونالت ملابسها المادية درجة الحقائق ، وأن شيئاً على قدر ما هو لطيف ، وعلى قدر ما هو مجرد من الأرجاس المادية هو خفي مستتر وراء حدود العقل والشعور في هذا النظام ، وأن الجسد المادي له وزن في هذا النظام ، ولكن لا وزن فيه البتة للحقائق اللطيفة البسيطة . ومن الممكن أن يوزن فيه الحديد والحجر والخشب ، ولكن لا مجال في قانونه لوزن العقل والرأي والفكر والنية والخيال والعزم والعاطفة والوجدان ، ومن الممكن أن توزن فيه او تكال فيه الحبوب والفواكه ، ولكن لا مجال فيه لوزن المحبة والنفرة ، ومن الممكن أن يقاس فيه الثوب ولكن لا مجال فيه لقياس البغضاء والحسد ، ومن الممكن أن تحدد فيه قيمة الدنانير والدراهم ، ولكن لا مجال فيه لتحديد قيمة العاطفة التي تحث الإنسان على السخاء أو البخل .

هذه بعض من وجوه النقص في هذا النظام ، ولأجل نقصه هذا يتطلب العقل نظاماً أرقى منه لا تكون فيه الحقائق بحاجة إلى الملابس المادية ، وإنما تكون بارزة يراها كل من أراد معرفتها بدون ما حجاب ولا حاجز ، وتنتصر فيه اللطافة على الكثافة ، ويتجلى فيه كل ما هو خاف مستتر الآن .

ومن وجوه النقص – كذلك – في هذا النظام أن القوانين المادية لها الغلبة ولها الكلمة

المسموعة فيه ، ولذا لا يحدث فيه للافعال إلا النتائج المتفقة مع مقتضيات القوانين المادية ، ولا تحدث فيه النتائج المتفقه مع العقل والحكمة . فمثلا اذا أوقدت فيه ناراً احترق بها كل شيء قابل للاحتراق . وإذا صببت فيه ماء ابتل به كل شيء قابل للابتلال ، ولكنك إذا عملت فيه صلاحاً لا تظهر فيه نتيجته بصورة الصلاح على كل حال كما يقتضيه العقل والحقيقة ، وإنما تظهر بالصورة التي تقتضيها القوانين المادية ولو كانت هي صورة الفساد المعاكسة تماماً لصورة الصلاح .

والعقل عندما يشاهد هذا النقص في النظام الحاضر يوجب أن يقوم بعده نظام أرقى منه تجري فيه القوانين العقلية بدلا من القوانين المادية ، وتظهر فيه للأفعال نتائجها الحقيقية التي لا تظهر في النظام الحاضر لغلبة وسيادة القوانين المادية فيه ...

مصير نظام العالم حسب بيان القرآن :

إذا أدركت هذه المقدمات فتعال لنريك الآن ماذا يجيب به القرآن على سؤالك عن مصير نظام العالم في ما قد صور في آياته من مشاهد القيامة والنشأة الآخرة يقول :

« ما خلقنا السموات والأرضَ وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مسمى » (الاحقاف ٣) .

« وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى » (الرعد ٢) .

ثم إنه يصور أهوال يوم القيامة بكلماته التالية :

« إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت ، وإذا البحار فجرت ، وإذا القبور بعثرت » (الانفطار ١ ، ٤) .

« إذا الشمس كورت ، وإذا النجوم انكدرت ، وإذا الجبال سيرت » (التكوير ٣١) .

« فإذا النجوم طمست ، وإذا السماء فرِجت ، وإذا الجبال نُسفت » (المرسلات ٨ ، ١٠)

« فإذا برق البصر ، وخسف القمر ، وجمع الشمس والقمر » (القيامة ٧ ، ٩) .

« وحُمِلت الأرض والجبال فدُكّتا دكة واحدة » (الحاقه ١٤) .

« يوم تُبدلُ الأرض غيرَ الأرضِ والسموات وبرزوا لله الواحدِ القهـار » (ابراهيم ٤٨) .

ففي كل هذه الآيات إشارات واضحة إلى أن ليس نظام العالم الجاري بنظام خالد سرمدي وإنما هو نظام مؤقت له أجل معلوم إذا انتهى اليه فلا بد له من الاختلال والتهدم ،

ولا بد إذن للشمس والقمر والأرض وما اليها من السيارات التي هي أركان هذا النظام ، ويقوم هذا النظام بدورانها أن تتناثر ويحتك بعضها مع بعض ، ويخبو نورها ، ولا بد إذن أن يتهدم هذا البناء الموقت ، ولكن ليس معنى ذلك أن نظام العالم سيعدم بذلك عن الوجود ، وتنتهي سلسلة الخلق والإبداع ، وإنما معناه أن سيبدل عندئذ الطور الخاص الذي نشاهده الآن لعالم الوجود ، ويقام مقامه نظام آخر ، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل :

« يوم تبدل الأرض غيرَ الأرض والسموات » (ابراهيم ٤٨) .

نظام الحياة الآخرة :

أما كيف ومن أي نوع سيكون ذلك النظام ؟ ... فيعلم من الكيفية التي وردت في القرآن الكريم بدون ما ريب ولا إبهام أن ذلك النظام إنما سيكون صورة ارتقائية لنظامنا الحاضر ، وإكمالا لنقصه على عين ما يقتضيه العقل سيكون فيه كل شيء من الوزن والكيل والقياس ، ولكن لا للأشياء المادية وإنما للمعاني المجردة ، والحقائق اللطيفة البسيطة . سيوزن فيه الخير والشر ، والبر والإثم ، والفضيلة والرذيلة ، والإيمان والكفر ، والاخلاق والملكات ، وستقاس فيه النيات والإرادات ، والعواطف والهواجس والأحاسيس وسائر أفعال القلوب . لا يحاسب فيه الانسان على وزن الخبز الذي أطعمه أحداً من الفقراء والمساكين ولا على عدد الدراهم التي أعطاها أحدا من السائلين والمحرومين وإنما يحاسب فيه على النية التي حملته على هذا الكرم والسخاء ، وإن القانون فيه لا يكون مادياً ، وإنما يكون معنوياً . وفي ذلك يقول جل من قائل :

« إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (الاسراء ٣٦) .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (الانبياء ٤٧) .

« والوزن يومئذ الحق فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم » (الاعراف ٨ — ٩) .

« يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليُروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » (الزلزال ٥ — ٨) .

وسيبرز في ذلك النظام كل شيء هو مستتر لا نراه بأعيننا في نظامنا المادي الحاضر

لسبب غلبة القوانين المادية وقيودها ، وستبدو فيه الحقائق اللطيفة والمعاني المجردة بدون ما حجاب ولا حاجز كما هي على حقيقتها :

« لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » (ق٢٣).

« يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية » (الحاقه ١٨) .

وفي ذلك النظام ستحدث للأفعال نتائجها الحقيقية المتفقة مع العقل والعدل ، ولا تجري فيه القوانين المادية ولا الأسباب المادية ، كما هي تجري اليوم في نظامنا الحاضر ولتأثيرها لا تحدث هنا للأفعال نتائجها الحقيقية العقلية ، لذا فإن كل شيء يحول هنا دون أن يظهر العدل والقسط وتترتب على الأفعال نتائجها الحقيقية العقلية .. سيعود بدون ما تأثير في نظام الحياة الآخرة . فمثلاً إن المال والجاه ، والحسب والنسب ، والكياسة والفطانة ، وسلاطة اللسان ، وكثرة الوسائل المادية وقوة الحلفاء ، والأصدقاء والأقرباء ، وسعيهم وشفاعتهم ، كل هذه من الأسباب التي تنقذ الإنسان في نظامنا الحاضر من نتائج كثير من أقواله وأفعاله،ولكنها ستفقد تأثيراتها في نظام الحياة الآخرة، فلا يترتب فيه على كل فعل من أفعال الإنسان ، ولا على كل قول من أقواله ، إلا النتيجة التي يجب أن تترتب عليه على مقتضى من العقل والعدل والحق والصواب :

« هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت » (يونس ٣١) .

« ووفيت كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » (آل عمران ٢٥) .

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء » (آل عمران ٣٠).

« واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم يُنصرون » (البقرة ٤٨) ..

« فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون » (المؤمنون ٣١) .

« يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » (الشعراء ٨٨) .

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضل عنكم

ما كنتم تزعمون » (الانعام ٩٤) .

« لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامه يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » (الممتحنه ٣) .

« يوم يفر المرء من أخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه ، لكل امريء منهم يومئذ شأن يغنيه » (عبس ٣٤ ، ٣٧) .

ومن وجوه النقص في نظامنا الحاضر أن ليست فيه قسمة جوائز الطبيعة ومواهبها بقائمة على حسن الأعمال وإنما هي قائمة على عوامل لا تكون فيها الأعمال الذاتية ، ولا الاستعدادات الشخصية إلا بمنزلة سبب من الأسباب ، فطالما تتغلب عليها عوامل كثيرة أخرى ، وتوهن تأثيرها بل تزيله إزالة كلية ، لأجل هذا فلا دخل هنا للاستحقاق الذاتي في قسمة جوائز الطبيعة والسواء بها ، وإن كان فإنما هو بمنزلة الصفر ، من الممكن هنا أن يترفع الإنسان في النعيم ، ويتمتع بالرغد والرفاهية ، واللذات المادية ، والخيرات الدنيوية على الرغم من ظلمه وفسقه وفجوره طول حياته ، كما أنه من الممكن هنا أن يقضي كل حياته بالفقر والبؤس ، والفاقة والمصائب والآلام الدنيوية ، على رغم التزامه الصلاح والأمانة والتقوى والفضيلة طول حياته ..

فهذا النقص يحتاج إلى الإكمال ، يقضي العقل والعدل والحكمة أن يترقى هذا النظام حتى يتحول إلى نظام كامل بكل معنى الكلمة ، إلى نظام لا تكون فيه قسمة الجزاء والعقاب والثواب والعذاب إلا بالعدل والقسط ، ولا ينال فيه كل شخص إلا ما يستحقه بناء على حسنه أو قبحه الذاتي . يقول القرآن : إن نظام الآخرة لا يكون إلا نظاماً كهذا :

« أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » (ص ٢٨) .

« أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون » (الجاثيه ٢١) .

« ولكل درجات مما عملوا » (الانعام ١٣٢) .

« وأزلفت الجنة للمتقين وبرّزت الجحيم للغاوين » (الشعراء ٩٠) .

فهذا هو نظام الحياة الآخرة كما يقرره دين محمد ﷺ ودين سائر أنبياء الله ورسله صلوات الله عليهم وسلامه . أما الذين يرون في هذا الكون وفي نظامه لعبة كلعب الأطفال ، أو حادثا من الحوادث بدون ما غاية ولا نتيجة ، ولغزاً من الألغاز المرتبكة ما بدأ إلا بالعبث ولا ينتهي إلا بالعبث . فلا يجدون في عقيدة الحياة الآخرة هذه، ولا في دلائلها وشواهدها شيئاً جديراً بالقبول والتسليم . وأما الذين يعتقدون أن هذا الكون ما نشأ بنفسه على سبيل الصدف والاتفاق ، وإنما نشأ بخلق الله العظيم الحكيم ، فهم عندما ينظرون في دلائل عقيدة الحياة الآخرة وشواهدها يعترفون بأنه من اللازم أن يحدث بعد نظام الكون الحاضر نظام آخر بمثل هذا الطور وبمثل هذه الكيفية ويقولون : إنه لما قد ثبت الإمكان للحياة بعد الموت فإن ثبوت الحاجة إلى هذا الممكن أكثر من الكافي للإيمان بأن الله العلي الحكيم لا بد أن يوجد هذا الممكن اللازم للوجود ..

فالذي قد ثبت بما قلنا في هذا المبحث أن ليست الحياة الآخرة التي قد دعا الإسلام إلى الإيمان بها ببعيدة عن العقل كما يعتقدها الماديون عامة ، وإنما هي من عين ما يقتضيه العقل والعلم والحكمة ، ومن المحال أن تهزهذا الإيمان وتحدث فيه الثلمة مرحلة من مراحل رقي العلم ، بشرط أن يكون ذلك الرقي رقيا حقيقياً لا رقياً سطحياً صورياً ..

حاجة الانسان إلى عقيدة اليوم الآخر :

قد ثبت مما قلناه حتى الآن أن وقوع حياة أخرى بعد حياتنا الدنيا الحاضرة ممكنة وأنه أقرب إلى القياس ، وأنه عين ما تقتضيه الحكمة وأن العقل – بشرط أن يكون سليماً والعلم – بشرط أن يكون حقيقياً – لا يمنعان أبداً الإيمان بعقيدة اليوم الآخر كما قد عرضها القرآن ، وإنما يحملان الإنسان عليها حملا ويدفعانه إليها دفعا ..

ولكن ينشأ هنا سؤال آخر هو : ما هي حاجتنا إلى الإيمان بعقيدة اليوم الآخر هذه. ولماذا قد جعلها الإسلام من أركان الإيمان؟ولماذا قد أكدها القرآن، وأبدأ وأعاد في دعوة الناس إليها حتى جعلها مما لا يدخل الإنسان في الإسلام بدونه ، وهدده إذا أنكرها بحبط كل ما كسب من الأعمال طول حياته ؟... إذا تأملنا عقيدة اليوم الآخر كما قد عرضها القرآن الكريم وانعمنا فيها النظر بعين الجد والاهتمام ، علمنا على اليقين أنها ليست مجرد نظرية فلسفية بل لها أوثق ما يكون من العلاقة بأخلاق الإنسان وأعماله في جملة شعب حياته وتتغير بها وجهة نظره في الحياة الدنيا رأساً على عقب ، فمعنى إيمانه

بها أن لا يرى نفسه في هذه الدنيا كائناً حراً طليقاً ، ولكن كائناً ذا تبعة ومسؤولية ، ولا يؤدي جملة أعماله وتصرفاته إلا على شعور تام من أن عليه تبعة كل حركة من حركاته، وأنه مسؤول عنها في حياته المقبلة ، وأن سعادته أو شقاءه في مستقبله لا يتوقف إلا على أعماله الصالحة أو السيئة في حاضره ومعنى عدم إيمانه بها أن يرى نفسه كائناً حراً طليقاً لا تبعة عليه ولا مسؤولية ، ولا يؤدي جملة أعماله ولا يرتب جملة تصرفاته في هذه الحياة الدنيا إلا على الظن بأنه ليس مسؤولا عنها ، وأنه لا تترتب عليهانتيجة حسنة أو سيئة في حياة أخرى بعده هذه الحياة . . .

ومن التأثير اللازم لخلو ذهن الإنسان من عقيدة اليوم الآخر أو عدم إيمانه بها ، أنه لا يطمح ببصره إلا الى النتائج المترتبة على أعماله في هذه الدنيـــا ، ولا يحكم على شيء بالمنفعة أو المضرة إلا باعتبار هذه النتائج فحسب . إنه يحترز عن أكل السم ولا يضع يده في النار لماذا ؟ لأنه يعلم أنه لا بد أن يذوق وبال هذين الفعلين ونتائجهما السيئة في حياته هذه ، وأما الظلم والكذب والخيانة والغدر والغيبة والزنا وما اليها من الأفعال التي لا تظهر نتائجها السيئة في هذه الحياة كاملة فإنما يحترز عنها على قدر ما يخاف من ظهور نتائجها السيئة في حياته هذه ، ولا يتردد في اقترافها حينما لا يرى نتيجة سيئة تترتب عليهما ، أو يرجو أن ينال بها منفعة مادية في هذه الدنيا نفسها . وجملة القول أن فعلا معنويا لا تكون له في نظره قيمة معنوية معينة ، وإنما يكون حسنه أو قبحه متوقفاً في نظره على حسن أو قبح نتيجته المترتبة عليه في هذه الحياة الدنيا نفسها . .

أما الذي يقول بعقيدة اليوم الآخر . فلا يطمح ببصره الى النتائج العاجلة المترتبة على أعماله في هذه الحياة وحسب ، وإنما يطمح ببصره إلى نتائجها الحقيقية المترتبة عليها في حياة أخرى بعد هذه الحياة الدنيا ، ولا يحكم على فعل بالمنفعة أو المضرة إلا على اعتبار تلك النتائج فهو كما يكون على يقين من أن السم مهلك والنار مؤلمة ، كذلك يكون على يقين من أن الظلم والكذب والغدر والخيانة والزنا كلها أفعال مهلكة مؤلمة ، وهو كما يعتقد أن الخبز والماء نافعان ، كذلك يعتقد أن العدل والأمانة نافعان ، ويقول بنتيجة معينة يقينية لكل فعل من أفعاله ، ولو لم تظهر في هذه الحياةأصلا بل ولو ظهرتفيها على صورة معاكسة تماماً ، وتكون في نظره للأعمال المعنوية قيم معنوية معينة لا يدب اليها دبيب التغير والتبدل بالمنافع أو المضار العاجلة الظاهرة في هذه الدنيا ، ولا بد أن يكون الصدق والعدل والوفاء بالعهد حقا في نظامه للأخلاق ، ولو كانت لا ترجع عليه في هذه

الحياة الدنيا إلا بالمضار والمصائب والآلام . ولا بد أن يكون الكذب والظلم والغدر إنما في نظامه للأخلاق ، ولو كانت ترجع عليه بالمنافع واللذات والمباهج في هذه الحياة الدنيا .

ليس معنى خلو ذهن الإنسان من الاعتقاد باليوم الآخر أو إنكاره إياه أن ذهنه خال من نظرية من النظريات المتعلقة بعالم ما بعد الطبيعة ، وإنما معناه أنه غافل عن أن له شخصية ذات تبعة ومسؤولية ، وأنه يعتقد نفسه كائناً بريئاً من كل تبعة ومسؤولية ، وأنه راض بالحياة الدنيا مطمئن بنتائجها الناقصة ، بل الخادعة في أكثر الأحيان ، وقد انصرف بوجهه عن المنافع والمضار الحقيقية النهائية ، وأقام الوزن للمنافع والمضار العاجلة المؤقتة ، وعلى اعتبارها فحسب جعل لأفعاله قيما معنوية لا تستقر على شيء معلوم ، وقد حرم نفسه ضابطة خلقية راشدة محكمة لا تنضبط إلا بشعوره بالتبعة ورعايته للنتائج الآجلة ، واعتباره للقيم الخلقية المستقرة على شيء معلوم ، وهكذا قضى كل حياته مغترا بمظاهر الدنيا الخلابة ، تحت ضابطة واهية قد تقررت فيها المضرة الحقيقية منفعة ، وتقررت المنفعة الحقيقية مضرة ، وتحول فيها المعروف الحقيقي إلى منكر ، وتحول المنكر الحقيقي إلى معروف . تلك هي النتائج لإنكار الحياة الآخرة قد بينها القرآن بكل شرح وتفصيل. وإنك إذا تتبعت آيات القرآن في هذا الشأن علمت أحسن علم أنه ما من مفسدة ولا منكر يحدث في أخلاق الإنسان وأعماله لعدم إيمانه باليوم الآخر ، إلا وقد عنى القرآن بذكره ونعى على أصحابه فمن ذلك مثلا :

١ – إن الإنسان يحسب نفسه حراً لا تبعة عليه ، ويرى أن حياته بمجموعها بدون نتيجة ، ولا يعمل في الدنيا إلا على الظن بأن لا رقيب عليه ولا محاسب :

« أيحسب الإنسان أن يترك سدى » ؟ (القيامة ٣٦) .

« أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » (المؤمنون ١١٥) .

« أيحسب أن لن يقدر عليه أحد ؟ يقول أهلكت مالاً لُبَدا ؟ أيحسب أن لم يره أحد » ؟ (البلد ٥ و ٦ و ٧) .

٢ – وأنه إنما يرنو ببصره إلى ظاهر من الحياة الدنيا ، ويحسب أن النتائج السطحية العاجلة التي تظهر لأعماله في هذه الدنيا هي نتائجها الحقيقية النهائية ، وأنه لاغتراره بها

لا يتبنى لنفسه إلا آراء فاسدة وأفكاراً باطلة :

« يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (الروم ٧) .

« إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها » (يونس ٧) .

« كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » (القيامة ٢٠) .

« بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » (الأعلى ١٧) .

« وغرتهم الحياة الدنيا » (الاعراف ٥١) .

٣ – وأن النتيجة اللازمة لاغتراره بالحياة الدنيا ، ونظره إلى ظاهرها فحسب ، أنه ينعكس في نظره مستوى القيم المعنوية للأعمال .

فالأعمال التي هي ضارة باعتبار نتائجها النهائية يراها نافعة لنظره إلى نتائجها العاجلة فحسب ، والأعمال التي هي نافعة باعتبار نتائجها النهائية يراها ضارة لنظره إلى نتائجها الابتدائية فحسب . لكل هذا فإن جهوده الدنيوية تحيد عن المناهج الصحيحة والطرق المستقيمة وتضيع في الطرق الخاطئة المضلة :

« قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً » (القصص ٨٠ – ٨١) .

« إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون » (النمل ٤) .

« أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون » (المؤمنون ٥٥ – ٥٦) .

« قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم » (الكهف ١٠٣ – ١٠٥) .

٤ – وأنه من المحال عليه أن يقبل دين الحق ويتبع أحكامه . فكلما عرضت عليه الأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ودعي إلى التزامها في حياته رفضها رفضاً . وكلما عرضت عليه العقائد الباطلة ، والأعمال الخاطئة مال إليها ميلا وافتتن بها افتتاناً ، لأنه ما من طريق من طرق الدين إلا هو متطلب للتضحية بكثير من المنافع والمباهج واللذات في

الحياة الدنيا ، وأصل أصوله التضحية بالمنافع الدنيوية المؤقتة في سبيل المنافع الأخروية الخالدة . ولكن الإنسان بإنكاره الحياة الآخرة لا يحسب المنافع إلا منافع هذه الحياة الدنيا. فلا يستعد بحال للتضحية بها ، ولا يسلك طريقاً من طرق الدين إذا كان يدعوه إلى إيثار منافع الحياة الآخرة عليها . لذا فإن إنكار الحياة الآخرة واتباع دين الحق على طرفي نقيض . وفي ذلك يقول عز من قائل :

« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كلّ آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلا . ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين، والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالـُهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » (الاعراف ١٤٦ – ١٤٧) .

٥ – وإن إنكار الآخرة لا بد أن تنطبع به حياة الإنسان بجملة نواحيها من معنوية وعملية :

« فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبُهم مُنكِرة وهم مستكبرون » (النحل ٢٢) .

« واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون » (القصص ٣٩) .

٦ – ولا بد أن تفسد معاملاته مع الناس :

« ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم » (المطففين ١ – ٥) .

ولا بد أن يتحجر قلبه ، ويضيق نظره ، فيعرض عن العبادة الإلهية ، ولا يعمل شيئاً إلا رئاء الناس أو ابتغاء منفعة من المنافع المادية العاجلة :

« أرأيت الذي يكذب بالدين ؟ فذلك الذي يدعّ اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين، فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » (الماعون ١ – ٧) .

وخلاصة القول أن اعتداء الإنسان حدود الحق ، ووقوعه في الآثام والمنكرات والمعاصي ، نتيجة لازمة لإنكاره اليوم الآخر :

« وما يكذب به إلا كل معتد أثيم » (المطففين ١٢) .

وهذه النتائج لخلو ذهن الإنسان من الاعتقاد باليوم الآخر أو إنكاره إياه لا يكاد يكابر فيها عاقل ، وخاصة أننا لما قد شاهدنا بأم أعيننا ثمرات تلك المدنية التي إنما أقيمت على أساس الغاية المادية ، والافتتان بظاهر من الحياة الدنيا ، وهي خالية خلواً كلياً من الاعتقاد باليوم الآخر ، ما بقي لنا مجال لإنكار الحقيقة القائلة بأن الإنسان لا يستطيع أن يميل إلى التدين وعبودية الحق والتزام مكارم الأخلاق إذا كان منكراً للحياة الآخرة .

هذا وتعال لنريك الآن أن الإسلام عندما يريد إقامة هذه الأمور .. وأنه عندما يدعو الانسان إلى أخلاق وأعمال صالحة لا بد له لالتزامها من التضحية بكثير من المنافع والمباهج واللذات المادية .. وأنه عندما يعظ الانسان بعبادة ربه ، وتزكية نفسه مما لا يرى نتيجة تترتب عليه في هذه الدنيا، بل وكثيراً ما يرى آلاماً شديدة ومصائب فادحة تترتب عليه في نفسه وجسده ... أو أنه عندما يميز الحرام من الحلال والخبيث من الطيب في جملة شئون الحياة ، وفي تمتع الإنسان بأسباب الدنيا ووسائلها .. وأنه عندما يدعو الإنسان إلى التضحية بأغراضة الشخصية ، ورغباته النفسية ، بل وبماله ونفسه لتحقيق الأغراض الروحية والمعنوية ... وأنه عندما يريد أن يقيد حياة الانسان الفردية والجماعية بضابطة خلقية قد حددت فيها قيمة معنوية معلومة لكل عمل من الأعمال بصرف النظر عما يترتب عليه من المنافع أو المضار في هذه الحياة الدنيا ... فقل لي بالله هل كان له أن يلقى النجاح في إقامة دين كهذا أو شريعة كهذه دون أن يدعو الانسان إلى الاعتقاد باليوم الآخر ؟ وهل كان يرجى من الإنسان مع خلو ذهنه من هـــذا الاعتقاد أن يتلقى تعليماً كهذا بالقبول والاذعان ؟ والجواب على هذا إن كان بالنفي — وهو بالنفي بدون ما شك — فقد لزم الاعتراف بأنه لا بد لإقامة نظام ديني كهذا وضابطة خلقية كهذه من أن يلقى في روع الانسان قبل كل شيء آخر الاعتقاد بالحياة الآخرة ، وبناء على هذا السبب قد جعل الإسلام هذا الاعتقاد من أركان الإيمان ، وأكد الدعوة اليه بما لم يؤكد به الدعوة إلى اعتقاد آخر حاشا الإيمان بالله .. وتعال لنريك الآن : على أية صورة قد عرض الاسلام عقيدة اليوم الآخر ؟ وما هي الآثار والنتائج التي تترتب عليها في أخلاق الإنسان وأعماله وسلوكه العام في الحياة ؟ .

١ – إيثار الآخرة على الدنيا :

إن أول شيء قد عنى القرآن عناية خاصة بإرساخه في ذهن الإنسان هو أن الدنيا إنما هي منزل مؤقت لإقامته وسكناه ، فما الحياة هذه الحياة الدنيا ، وإنما ستأتي بعدها حياة

أخرى هي خير منها وأبقى ، ومنافعها أوفر وأعظم من منافعها ، ومضارها أشد وآلم من مضارها ، وعلى هذا فالذي يغتر بظاهر هذه الدنيا ويفتتن بمتعها ولذاتها ، ويسترسل وراء منافعها ومباهجها ، ويبذل للحصول عليها جهوداً تضيع عليه نعيم الحياة الآخرة ولذاتها ومنافعها ، فما تجارته هذه إلا تجارة خاسرة . وكذلك إن الذي لا يرى الخسارة والمضرة إلا خسارة هذه الحياة ومضرتها ، ويبذل لاجتنابها جهوداً يستحق بها الخسارة والمضرة في الحياة الآخرة ، فهو في حقيقة أمره يرتكب أعظم حماقة ، ولا تجتمع فعلته هذه مع ما يقتضيه العقل والعلم والحكمة .. وهذا الموضوع قد بينه القرآن ، وأفاض القول في مالا يأتي تحت الحصر والاستقصاء من آياته . راجع على سبيل المثال الآيات التالية :

« وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان » (العنكبوت ٦٤)
« قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى » (النساء ٧٧) .

« أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل » (التوبة ٣٨) .
« بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى » (الأعلى ١٧ — ١٨) .

« كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (آل عمران ١٨٥) .

« واتَّبَعَ الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين » (هود ١١٦) .
« قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين » (الزمر ١٥) .

« فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » (النازعات ٣٧ — ٤١) .
« إعلموا أنما الحياةُ الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباتُه ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغُرور » (الحديد ٢٠) .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ؟ للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها

وأزواج مطهرة ورضوان من الله » (آل عمران ١٤ – ١٥) .

والمقصود من هذا التعليم الذي قد عرضه الأسلام بابلغ أسلوب بياني إيثار الآخرة على الدنيا ، والتضحية بالمنافع العاجلة في الدنيا ، للحصول على السعادة الأبدية في الآخرة ، واحتمال المضار والخسائر والمصائب والمحن المؤقته في الدنيا ، لاتقاء الخسران الأبدي في الآخرة ... إن من كان يؤمن بالقرآن ورسالة محمد ﷺ عليه أن يؤدي عن طواعية نفسه لا تحت ضغط أو إكراه كل فعل قد قرره الله ورسوله وسيلة من وسائل الفلاح والسعادة في الآخرة ، ويجتنب كل فعل قد قرره سبباً من أسباب الشقاء والخسران في الآخرة بصرف النظر عما إن كان في الدنيا نافعاً أو ضاراً ..

٢ – الحساب والجزاء على الأعمال :

والأمر الثاني الذي قد عنى القرآن بإرساخه في ذهن الإنسان وإلقائه في روعه هو أن أي عمل يعمله في حياته الدنيا ، ولو بغاية من الإسرار هو مسجل عند الله في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وأنه سيعرض عليه هذا الكتاب في محكمة الله العادلة يوم القيامة ، حيث ستشهد عليه كل ذرة كان لها نوع من العلاقة بأعماله في حياته الدنيا . حتى إنه ليشهد عليه لسانه وبصره ويداه ورجلاه وسائر أعضاء جسده ، ثم إن أعماله هذه ستوضع في ميزان القسط : أعماله الحسنة في كفة وأعماله السيئة في كفة فإن رجحت الأولى وجب له الفلاح والسعادة الأبدية ، وكانت الجنة هي مأواه ، وإن رجحت الأخرى خسر خسراناً مبيناً وكانت دار البوار جهنم هي مأواه . ويبين القرآن مع ذلك أنه لا يحضر كل شخص في تلك المحكمة إلا بمفرده وأنه لن ينفعه فيها سبب من الأسباب الدنيوية لا حسب ولا نسب، ولا خلة ولا شفاعة ، ولا مال ولا بنون ولا قوة ولا جاه ..

وهذا الموضوع أيضاً قد جاء بيانه في القرآن بكل شرح وتفصيل بأبلغ أسلوب وأوقعه في القلوب وها نحن أولاء نسرد في ما يلي آيات من القرآن جاء فيها بيان هذا الموضوع على سبيل المثال :

أ – كيفية عرض الأعمال على الإنسان :

« سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار ،

له معقباتٌ من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله » (الرعد ١٠ – ١١) .

« ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتابِ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا » (الكهف ٤٩) .

ب – شهادة الجلود والجوارح وشهادة الإنسان على نفسه :

« يوم تشهد عليهم ألسنتُهُم وأيديهِم وأرجلُهُم بما كانوا يعملون » (النور ٢٤) .

« حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعُهُم وأبصارُهُم وجلودُهم بما كانوا يعملون ، وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه تُرجعون ، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعُكم ولا أبصاركم ولا جلودُكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيراً مما تعملون » (فصلت ٢٠ – ٢٢) ..

« وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » (الانعام ١٣٠) .

فهؤلاء هم الشهود الذين بهم سيحضر كل إنسان في محكمة الله العادلة ثم كيف يكون موقفه في تلك المحكمة ؟ يشير إلى ذلك قوله تعالى :

« ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم» (الانعام ٩٤) .

« وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشورا . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »(الاسراء ١٣ – ١٤) .

ج – ولن ينفعه في تلك المحكمة حسبه ولا نسبه :

« لن تنفعَكم أرحامُكم ولا أولادُكم يومَ القيامة » (الممتحنة ٣) .

ولا شفاعة شافع (إن كان كافراً) .

« ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » (غافر ١٨) .

« يوم لا ينفع مال ولا بنون » (الشعراء ٨٨) .

د – وستوزن فيها الأعمال ويحاسب عليها الإنسان ولو كانت مثقال ذرة :

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » (الانبياء ٤٧) .

ولا يكون فيها الثواب ولا العقاب إلا على قدر الأعمال :

« اليوم تجزون ما كنتم تعملون » (الجاثية ٢٨) .

« ولكل درجات مما عملوا » (الانعام ١٣٢) .

هذه هي شرطة الآخرة وهذي هي محكمتها يريد القرآن أن يلقي هولهما في روع كل إنسان وما هذه الشرطة كشرطة الدنيا التي قد يعجزها الإنسان بحيلة من الحيل ، ولا هذه المحكمة كمحكمة الدنيا التي قد يطلق فيها سراح الجاني لعدم توفر الشهود ، أو لتوفر الشهود الكاذبين ، أو لتأثيرات باطلة أخرى ... وإنما هي شرطة تراقب الإنسان في كل حال من أحواله ، وإنما هي محكمة لا يستطيع الجاني فيها أن يفلت من نظر شهودها ولو بأية حيلة من الحيل ، وعندها كتاب سجل فيه كل عمل من أعماله بل وكل هاجسة من هواجسه ، وأحكامها قائمة على العدل والقسط ، فلا امكان لأن يسلم فيها المسيء من عقابه ، أو المحسن من ثوابه ..

فائدة الاعتقاد باليوم الآخر :

وهكذا قد جعل الإسلام من الاعتقاد باليوم الآخر سنداً قوياً تستند إليه ضابطته المعنوية ونظامه الشرعي . ففيه من جانب الترغيب العقلي في أعمال الخير والصلاح ، وفيه من جانب آخر الترهيب من العقوبة اليقينية على أعمال الشر والفساد ، وإن ضابطته أو نظامه هذا لا يحتاج في بقائه وقيامه إلى قوة مادية ، ولا إلى سلطة حكومية ، وإنما هو يضع في نفس كل إنسان بواسطة الإيمان باليوم الآخر ضميراً حياً يرغبه بدون ما طمع أو خوف خارجي في الفضائل والمعروفات التي قد قررها الإسلام فضائل ومعروفات ، على اعتبار نتائجها الحقيقية النهائية ، ويحذره من الرذائل والمنكرات التي قد قررها الإسلام رذائل ومنكرات على اعتبار نتائجها النهائية ..

انظر في القرآن تجد أنه كثيراً ما قد استعان بهذه العقيدة للدعوة إلى فضائل الأعمال ومكارم الاخلاق فقد قيل مثلا « اتقوا الله » ثم قيل بعده على الفور :

« واعلموا أنكم ملاقوه » (البقرة ٢٢٣) ..

وإن القرآن ليحرض المسلمين على القتال وبذل المهج في سبيل الله وذلك بأن يقنعهم أنهم إذا قتلوا لا يموتون وإنما ينالون حياة خالدة سرمدية ..

« ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتٌ بل أحياء ولكن لا تشعرون » (البقرة ١٥٤) .

ويلقنهم الصبر على المصائب والمكاره ، وذلك بأن يبين لهم أن الصابرين عليهم صلوات من ربهم ورحمة . وينشئهم على عاطفة الشجاعة والبسالة بأن يتلو عليهم نبأ بني إسرائيل من بعد موسى :

« قال الذين يظنون أنهم ملاقوا الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله » (البقرة ٢٤٩) .

وينشئهم على تحمل المحن والشدائد ، ومجابهة الأهوال والمخاوف مهما كانت بالغة من الفداحة والجسامة بأن يقول : « قل نار جهنم أشد حرا » (التوبة ٨١) .

ويحثهم على الانفاق فى سبل الخير بأن يقول لهم :

« وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تُظلمون » (البقرة ٢٧٢) .

وينهاهم عن الشح والبخل بأن يلقي في روعهم :

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة » (آل عمران ١٨٠) .

ويدعوهم إلى رفع أيديهم عما في أكل الربا من المنافع العاجلة بأن يقول لهم :

« واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » (البقرة ٢٨١) .

ويلقنهم الاستغناء عن متاع الدنيا وعدم الحسد للكفار على ما هم فيه من نعم الحياة الدنيا ومباهجها بأن يقول لهم :

« لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد ، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد ، لكنِ الذين اتقَوا ربّهم لهم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله وما عند الله خير للأبرار » (آل عمران ١٩٧) ا . هـ .

. . . . . .

هذا هو اليوم الآخر كما عرضناه حتى الآن نهايته الجنة أو النار ، والطريق إلى الجنة الإسلام ، والإسلام ضبط النفس عن الهوى ، فاتباع الهوى هو الطريق إلى النار :

« وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى » .

روى أبو داود والترمذي والنسائي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ لما خلق الله الجنة قال لجبريل إذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فحفها بالمكاره فقال اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال وعزتك لخشيت أن لا يدخلها أحد . ولما خلق الله النار قال لجبريل : اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فحفها بالشهوات فقال اذهب فانظر إليها فذهب فنظر إليها فلما رجع قال : وعزتك لقد خشيت ألا يسلم منها أحد إلا دخلها) . .

وروى الشيخان عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : حفت النار بالشهوات وحفت الجنه بالمكاره) .

إن الطريق إلى النار ممتع : اختلاط رجال ونساء وتبرج بلا حدود . وزنى ولواط . وخمرة . وسرقة ونهب ، وغش واختلاس ، وعقوق وعدم تأدية للواجبات ، وتحلل من التكاليف ولا مبالاة بقيمة ، وعداء لله والرسل ، واجتماع على الشهوات والباطل، واعطاء النفس ما تطلب ، وهروب من عبادة الله ، وركون إلى المادة والمحسوس ، وظلم وتعاون مع الظالمين . وبكلمة واحدة ما تشتهيه النفس تعمله وما لا تشتهيه تتركه . مهما ترتب على ذلك من آثار « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا» « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) . .

أما الطريق إلى الجنة فشاق على النفس : ذكر وفكر ، وتوحيد وخدمة ، وتوكل وخوف ورجاء ، ووضوء وغسل وصلاة وصوم وزكاة ، وحج وحجاب ، وعدم خلوة رجال بنساء ، فلا خمرة ولا إمرأة إلا ما أحل الله من النساء ، وحمل النفس على أخلاق معينة ، وجهاد وعلم وعمل ، وصراع مع أهل الباطل ، وترك مجاملات ، وصبر على هذا كله وبكلمة واحدة إلزام النفس ما كلفها الله به مهما ترتب على ذلك من مشقة ، ولا مشقة في الحقيقة ، فما كلفت النفس فوق طاقتها « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »

« إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون . »

فالله الله يا أيها الإنسان في نفسك ، فقد بلغك رسـل الله رسالات الله وانذروك وبشروك واقاموا عليك الحجة ...

. . . . . .

وبعد :

هذه مؤيدات الإسلام :

عذاب ذنب وعقوبة رب لمن خالف في الدنيا والآخرة ..

وحياة طيبة ونعيم دائم لمن أسلم وأطاع في الدنيا والآخرة ..

« وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سُرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » ..

(من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » ..

. . . . . .

وبهذا انتهى الفصل الرابع من (كتاب الإسلام) .

وبهذا الفصل ينتهي الكتاب .

وبهذا تنتهي دراساتنا حول الأصول الثلاثة : الله — الرسول — الإسلام .

والله نسأل أن يتقبل .

. . . . . .

وبعد : فلقد تحرينا فيما سقناه مما مرّ حسن الفهم عن الله والرسول ﷺ فإذا شط بنا القلم ، أو زلّ فينا الفهم ، فنستغفر الله ، ونستغفره على كل حال ، ولعل رجلا صالحاً يمن علينا بما يرى من قصور فنشكره وندعو له .

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

تصويبات

ص	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	١٤	بها	بهما
١٦	١٩	والذى	لا والذي
٢٠	٨	سبله	سبيله
٢٣	٥	المعجزة	العجز
٢٥	١٢	المسؤولين	المسؤولون
٢٦	١	أفراد	أفراداً
٢٩	١٨	الجنس	الجنس الأبيض
٣٠	١٨	ومسؤولية	ومسؤوليات
٣١	٧	تتسم	تتسمم
٤١	١٣	الغريبةوينتقص	الغريبة وينتقص
٥٦	٢٤	الآيات	لآيات
٥٧	١٦	اقتربنا	افترينـــا
٥٨	٢ ، ١٥	لنؤمن ، منا	لنؤمنن ، منها
٦٠	٧	ومن عكس	وعلى عكس
٦١	٣	أشد	ولعذاب الآخرة أشد
٦٦	١ ، ٥	الدنيا ، اخره	الدنيا ليست ، ادخره
٦٧	٤ ، ١٤	أيحب ، ما ذهب	أيحسب الإنسان ، من ذهب
٧١	٩	الآية	لآية
٧٣	١٥	أن	على أن
٧٩	١٤، ٢٣، ٢٥	نفس ، ولتقوم	نفساً ، ولتقومن
٨٠	١٤	المسيح	المسيح وخروج الدجال
٨٠	١٧	يأجوج	يأجوج ومأجوج
٨١	٣	الآية	الآية ذكرت
٨٣	٤ ، ٢٥	وترقوته ، استدبرته	إلى ترقوته ، استدبرته الريح
٨٧	٥	على يرى	على ما يرى
٨٨	٢٥	ويلها	يا ويلها
٨٩	٢٠	يبل	يبل لحيته
٩٠	٢١	ذلك	ذلك بهم
٩١	٢	في	من
٩٤	١٩	ـــ	قتلت ، وإذا الصحف نشرت

ص	السطر	الخطأ	الصواب
١٠١	٥	سلم	رب سلم
١٠٢	١٩	ذلك	ذاك
١٠٦	٨	أمرهم	ما أمرهم
١٠٧	٢٤	ساقها	مخ ساقها
١٠٨	١٢ ، ١٣	أزواجاً ، يستقذرون	أزواج ، يستقذر
١٠٩	١٢ ، ١٣	والذي ، في	والذين ، ما في
١١١	٢١	المؤمن	للمؤمن
١١٣	١٧	له	له في
١١٥	٧ ، ١٥ ، ٢٢	وأهددناهم ، نضاحتان،سرور	وأمددناهم، نضاختان ، سرر
١١٧	١١	وأكواكب	وأكواب
١١٨	٢٣	رأرهم	رأوهم
١١٩	١٦ ، ٢٠	فعاملون، فليذقوه	العاملون، فليذوقوه
١٢٠	١٣	الله ،	لله ،
١٢١	١٩	له	له في
١٢٢	٢	تخالج	تخالج نفس
١٢٣	١٤	الدهر	إلا الدهر
١٢٤	١٨ ، ٢٦	وليس ، يحسن	وليس فيها ، يحسب
١٢٧	١٩	ضلوا	عملوا